

— د.عشراتي سليمان —

الشخصية الجزائرية

بانوراما المشهد الحضاري لميلاد الدولة الحمادية



الجزء 2

دار الغرب للنشر و التوزيع

<http://boukrika.blogspot.com>



أ.د. عشارتي سليمان

— الكتب الصادرة —

- الخطاب القرآني
- العهد القديم والواقعة الاسرائيلية
- المستر والعري في أخلاق العهد القديم
- العقيدة الانجيلية وجدلية الانغلاق والانفتاح
- السياسة وإشكال الشرعية في الإسلام
- بديع زمان النورسي
- النورسي في رحاب القرآن
- الأمير عبد القادر الميماي
- الأمير عبد القادر المفكر
- الأمير عبد القادر الشاعر

بالإضافة إلى أعمال أخرى في الحضارة
والأدب والإبداع السينمائي.

٥٥/٣٥٤
٢/٣
أ. عشراتي سليمان

الشخصية الجزائرية

بانوراما المشهد الحضاري لميلاد الدولة الحمادية

الجزء الثاني

*Cet ouvrage est édité avec le concours
du Commissariat général
de l'Année de l'Algérie en France*

Djazair

الجزائر

دار الغرب للنشر والتوزيع

استهلال

وقد ألقينا نظرة عامة على المسار التاريخي والسياسي الذي مر به شمال افريقيا البربري قبل الفتح الاسلامي وبعده ، كان لابد لنا أن نتوقف عند حلقة متميزة في سلسلة هذا التاريخ ، شهدت ميلاد أول دولة بربرية صميمة ، نقصد بها الدولة الحمادية.

فقد كتب لهذه الدولة أن تظهر إلى الوجود على يد أبناء المغرب الأوسط من رجال صنهاجة وكتامة ، ممن شبوا في ظل الاسلام وتمرسوا بمدنيته في مجالات التسيير والقيادة والتعمير ، وهو ما هياهم لأن يأخذوا زمام أمر هذه البلاد بأنفسهم مستقلين عن المركزية العبيدية التي قامت على كاهلهم ، وتحولت إلى بلاد المشرق معولة على عصبيتهم وقوتهم.

لقد أردنا أن نستبين عن قرب بعض ما يطبع عملية قيام الدول من مخاض والم.

فواقعة ميلاد الكيانات السياسية تتجانس إلى حد بعيد مع ميلاد الكائن الحي مطلقا، فهي واقعة تقوم على مواعج وتمزقات ترهص لصرخة الحياة التي يرسلها الوليد ويبهج بها الأسماع.

وقد رأينا أن نوسع الصورة فنعرض لجذلية التفكك والتركيب التي ظلت قانونا يشترط ظاهرة قيام الدول وسقوطها ، والتي رأينا ابن خلدون عبر عنها في مقدمته بما غدا نظرية سياسية وعمرانية لاجتماع الأمة المسلمة في القرون الوسطى.

ومما سجلناه من أحوال ملازمة لميلاد الدول الإسلامية وملابسة لحدوثها هو واقع التنازع والتعسر والفجيرة. لكأن التاريخ ظل في تلك العهود يعمل من خلال دوامة الاضطراب والفتن والانتفاض على تجاوز مساحات الركود التي كانت المدنية الزراعية تحبسه فيها ، لذا كانت له في أوضاع التشاقق والتمزق التي تطرأ على البنى والوحدات والكيانات السياسية سبيلا يجدد به المشهد وينشط الحركة ويشبب المسيرة.

كما لفتنا الصبغة التعصبية التي أضحت تلحم بين القوى الاجتماعية ، فالمحرك يومئذ كان الدم والرحم والشعوبية ، وكان أيضا الفئات والمجاميع التي يوحد بينها المشرب والمصلحة.

فالعيارون ، وهم تلك الطوائف من اللصوص والبطالين والمهمشين والمتغربين عن بلدانهم ومن إليهم ، قد أخذوا صبغة العصية النافذة في المجتمع الاسلامي ، التي باتت تتعاطى الفعل الاجتماعي وتؤثر -من ثمة- في الشأن العام وفي السياسة.

ولا بدع - والحال تلك- أن يتهيكل المجتمع الاسلامي بأطر كان قاسمها المشترك هو المصلحة.

بل لا عجب أن تظهر في ذلك التقسيم المجتمعي الصراعى مصطلحات معبرة وفي مقدمتها مصطلح النقابة. فقد وجدنا مثلا نقابة الاشراف ، وكان لها ديوانها وسلمها الرئاسي والعرفي.

بل لقد كان مصطلح الطبقة من أظهر المحددات التي بات المجتمع المدني الاسلامي يمايز بواسطتها بين الفئات ويرسم أقدارهم ومراكزهم: طبقة القضاة ، طبقة الفقهاء ، طبقة..

وكان طبيعيا أن تضحي العسكرية عصبية قائمة بذاتها ، وربما ظلت تتمسك بالتميز العرقي الذي وضعها فيها الجدل الصراعى، بعد أن انزلت إليه الحضارة الاسلامية في ما عرف بالشعوبية.

وقد شملت نزعة الانتماء والتكتل فئات التجار والحرفيين والشرط.. بل وانتهت إلى المكارين وأصحاب الفنادق من حيث تكثرى الدواب والمركوبات.

ومن أظهر أحوال التضامن الفئوي ما كان يبادر إليه أصحاب المهنة التجارية أو الخدماتية الواحدة إذا ما أفلس أحدهم. فقد جرى عرفهم أن يمسكوا عن العمل يوما لصالحه ، فتصب أموال البلد من أقصاها إلى أقصاها في حجره ، فيسترد وضعه ، ويستأنف نشاطه بقوة وعافية.

وهي حال باتت تمارسها في واقعا الجزائري اليوم قطاعات حكومية ومدنية عدة ، وبكثير من التكتم.

فالجمركي ورث ابنه الجمركة والشرطي مثله والبريدي أيضا ، وكذلك الجندي والمغني والدبلوماسي وهلم جرا.

فضيق مجالات الحياة وفرص الرزق يفسح لمثل هذه الظواهر أن تتربس ، وفي ذلك ما فيه من ظلم وعدم تكافؤ الفرص.

ومن الواضح أن الدولة الحمادية قد عاشت العسرة في عهود نشأتها الأولى ، ثم كتب لها أن تزدهر ، وهو ما هون عليها أن تتصدى إلى ما ظل يعرض لها من ضغوط ومداهمات ، إذ أن منطق الاحتواء كان هو السائد بين الكيانات: حوت يأكل حوت.

كل ذلك عاشته الحمادية وترك أثره على المواطن في بلاد المغرب الأوسط. وصاغ ملامح من شخصية الجزائر الحضارية.

سنن التفكك والتركيب. وميلاد الدولة الحمادية

الوضع المادي والأدبي للخلافة العبيدية والأموية والعباسية في القرن الخامس:

لقد أشرنا فيما سبق إلى أن تحول العبيديين من المغرب إلى مصر كان يطمح إلى أن يستوعب في مركزية سياسية وثقافية أطراف العالم الإسلامي التي كان التفكك قد سرى في كيانها عصرئذ، وهدد الخلافة العباسية بالاندثار.

ولقد كان عمر الخلافة العبيدية الفتية، قياسا بنظيرتها العباسية أو الأندلسية الأقدم نشأة ، عاملا حيويا في إحداث حركية سياسية وعسكرية وعمرانية في قلب العالم الإسلامي بحيث أضحت مصر قطبا للتفاعلات الاجتماعية والثقافية في محيط يمتد من إفريقيا غربا وينتهي إلى قلب آسيا شرقا ، بعد أن تكرست الخطبة للعبيديين في مكة وباتت أخبار وقائعهم العسكرية في الشام وفي البحر ضد الروم تبلغ الأقاليم ، وهو ما جعل الميول السياسية تهفو إليهم ، وكثرة من الأقاليم تشرئب نحوهم. لقد رأينا منذ حين كيف تعالت الخطب للمستنصر من منابر بغداد، الحاضرة العباسية ذاتها في عهد البساسيري مثلا.

لقد كفل لهم التوسع العسكري كونهم رفعوا شعارات الدعوة العلوية التي كانت في بعض جوانبها تنتصف لآل البيت ، ومن خلالهم للمستضعفين عامة ، الأمر الذي جعلهم يستقطبون آمال الأمة

ففي مرحلة ما .. تلك الأمة التي كانت ظمأى إلى المجد ، توافة إلى الخلاص من ترديها ، فكانت التجديدات السياسية والعسكرية تثير فيها وازع الحياة ، فلا تملك حيال تلك التلويحات الواعدة بالانبعاث غير أن تستجيب وأن تلتف حول كل داع.. مما جعل ظاهرة الخروج ومخالفة السلطان تطرد وتلبس شتى الأردية بما فيها رداء العنف كما مارسته الباطنية مثلا.

لقد استحدث الخلفاء العبيديون من مظاهر الحفاوة وأبهة التشريفات ما اغتنت به البروتوكولية السلطانية في الحضارة العربية الاسلامية، اذ تحدث التاريخ مثلا، عن مراسيم كاملة لواقعة خروج الخليفة المعز، تلك الواقعة التي كانت تقترن بمناسبة حلول رأس العام الهجري أو بأحد العيدين ، الفطر والاضحى، فكانت تحشد للحدث من ألوان الإستعراض والإبهار، وفي كل فن، ما يعكس وجهها ذوقيا وجماليا لا يولده الا نضوج حضاري راسخ.

لقد كانت تستعرض في تلك التظاهرة الأسلحة بمختلف أنواعها، ويصطف الضباط بملابس الشرف، ويخرج الوزير بأبهة الملك ومن حواليه عباب من الأعلام الزاهية ترفرف، ثم يخرج الجند الخاص على أظهر بغالهم وطبولهم ترعد، ثم يلحق بهم أرباب الدواوين وسامو الاطارات ، وإذ يظهر الخليفة إلى الناس تحف الحاشية به وتتعبه في سيره حتى ينتهي الى مكانه في الصدارة، حيث يجلس ، فيقرأ المجودون القرآن بين يديه، ثم تبدأ الاستعراضات بألوانها ومبهراتها، وينشد الشعراء أشعارهم .. ثم يتحول الخليفة بالموكب

وسط زفة من الطبول والآلة والفرسان ، يؤمون أماكن معلومة ، ومزارات ، ومساجد .

ثم ينتهون الى المشهد الرسمي ، وهناك يبدأ مسلسل التكريمات ، والترقيات ، والتشريفات ، فتوهب العطايا وتوزع الهبات والمنح، وتبذل الأطعمة ، ويتبارى القوالون والشعراء والمغنون، وتتصادح الصنوج والطبول ، وتتمادى العروض والأفراح الشعبية من حول الموكب الرسمي ، وتعمر الساحات بأهل التلهية والبدع ومحترفي الألعاب والفرجة وصناع المسرات ، ويتابع الخليفة المشاهد التي يخصصه بها أصحابها أو التي يحضرها له الوزير.. بعدها يعود الخليفة إلى القصر، تاركا الحارات تعج بالمحتفلين والمتفرجين. لقد كانت مناسبة الخروج حدثا جاريا يقوم به الخليفة في أي يوم اتفق من أيام الاسبوع ، لا يقطعه عنه إلا الطوارئ والاختلالات الأمنية.. فالدولة كانت بهذه المراسيم ترسي نظاما يترسخ به حضورها وهيبتها.

على أن هناك مراسيم كانت تقام في اطار احتفالي جماهيري موقوت ومشهود كلما حلت مناسبة دينية مثل عيدي الفطر والنحر ومناسبة تشييع الحجيج إلى البقاع المقدسة ، وكانت حملات الجهاد تعرف أيضا حفاوة لكنها حفاوة يطغى عليها الحماس الديني وجو الجد.

لقد تميزت الخلافة العبيدية في مصر ميزة سياسة تمثلت في طول استقرار الخلفاء على سدة الحكم واستتباب عهودهم ، وعدم تعرضهم للهزات والإزاحات التي كان خلفاء بني العباس أو بني أمية بالاندلس عرضة لها على نحو دائم تقريبا وخاصة في مراحل الهرم المتأخرة.. فالمنتصر العبيدي مثلا، على ما طبع عهده من ضعف، حكم ما ينيف عن الستين عاما.

لقد كان معدل فترات حكم الخلفاء العبيديين مرتفعا قياسا بنظرائهم في كلتي الخلافتين : العباسية والأموية.. على أن عمر الخلافة العبيدية يعتبر عارضا بالقياس إلى العباسية.

بيد ان هذه الحال لاتعني براءة العهود العبيدية من عوارض الضعف والخور ، بل لقد رأينا التذمر والتحلل من روابط الطاعة التي ميزت الوضع الاجتماعي والعسكري في مصر العبيدية، يتصاعد ويتفاقم في مراحل عدة، وكان ذلك في الحقيقة عائدا إلى ضعف الخلفاء ووهن سلطانتهم وانحسار سيادتهم إلى حد الصورية أمام الوزراء والحاشية وقوى التنفذ ، مثلما كان شأن الخليفة المنتصر نفسه، أطولهم عهدا كما أسلفنا .

لقد كانت والدة هذا الخليفة هي المنتفذ الحقيقي في أمر الدولة، وتلك ظاهرة اطردت لمصر في عصور مختلفة، حيث ظل النساء يجدن أنفسهن في موقع القيادة وسياسة الشؤون العليا، منذ عهد الفراعنة .

لقد كان لهذه السيدة وزير يهودي يشير عليها باللائم من التدابير، وكانت العسكرية تتألف من عبيد وأتراك لايفتا التنازع قائما بينهم، وكان تأجيج الصراع بين الطرفين يلائم وضع السيدة ويسوغ قيامها على رأس الدولة .. غير أن اشتجار الفتنة بين العسكر وبين الفرقة الآخرين من قوى النظام، مصامدة وعربا، شيعية وسنة ، آل في آخر الأمر بالوضع إلى الانفجار .

وقد ظهر القائد العربي ناصر الدولة الحمداني في ذلك المشهد المتردي ، ضابطا انقلابيا يعمل على ربط مصر بالخلافة العباسية، حيث نجده أرسل ذات حين إلى الخليفة ببغداد يعلمه أنه سيخطب له، لكن العسكر التركي عاجلوا هذا القائد بالإعتقال وقتلوه، وقبل ذلك كان هؤلاء العسكر التركي وقيادة الحمداني نفسه قد ازاحوا المستنصر عن الحكم، وطالبوه بأموال وضيقوا عليه، وحين أوفدوا رسولا يتسلم المال منه، رأى هذا الرسول الخليفة يجلس على حصير، وليس من حوله غير ثلاثة خدم، وسمعه يقول له ، وكأنما يريد أن يقرعه عما كان يغيب عنهم من حاله : أما يكفي ناصر الدولة أن أجلس في مثل هذا البيت على مثل هذا الحصير؟

وطبيعي أن لا يحمل مثل هذا الموقف الدرامي، ذلك الرسول العسكري ، مهما كانت غلظته وفضاضته ، إلا على البكاء والثناء لحال الخليفة .

لقد تحكمت العسكرية في شؤون الخلافة العبيدية على نحو ما كانت تتحكم به في بغداد أو في الاندلس، وصعدت من اذلالها للخليفة وخاصة على عهد ناصر الدولة الحمداني، وقد كان المنزع المذهبي يعمق من الخلاف بين الشخصيتين ، اذ كان الحمداني " يظهر التسنن.. ويعيب المستنصر، وكان المغاربة كذلك، وهم رجال الدولة، أو (لوموكلاتورا) بلغتنا الحديثة، فأعانوا الحمداني على ما أراد، فقبض على أم المستنصر، وصادرها بخمسين ألف دينار، وتفرق عن المستنصر أولاده وكثير من أهله، إذ توجهوا الى المغرب وإلى بلاد أخرى، ومات كثير منهم جوعا وتشردا ، وانقضت سنة 446 هـ والسنة التي قبلها حافلتين بالفتن، وانحط السعر سنة 465 هـ، ورخصت الأسعار، وبالع ناصر الدولة في اهانة المستنصر وفرق عنه عامة أصحابه، وكان يقول لأحدهم: أني أريد أن أوليك عمل كذا، فيسير إليه فلا يمكنه من العمل ، ويمنعه من العود ، وكان غرضه بذلك أن يخطب للخليفة القائم.¹

إنها حال تكشف عن خور بليغ أصاب الخلافة العبيدية يومئذ ، أدى إلى اضمحلال أمرها عهد المستنصر الذي كانت العسكرية تحكم قبضتها عليه، وتخطط للإطاحة به وبالخلافة العبيدية ذاتها، على نحو ما كان يحدث للخلافة العباسية أيضا في عهد البساسيري كما رأينا.

و قبل عهد المستنصر كان يتميز عهد الخليفة العزيز أيضا بهذا التنفذ الأجنبي المسيحي اليهودي، من خلال توليهم إدارة شؤون

¹ - ابن الأثير . الكامل .

الخلافة وتسيير مجالات حيوية فيها. فلقد ولى العزيز عيسى بن نسطور النصراني ديوان كتابته ، واستتاب بالشام يهوديا اسمه منشأ، فاعتز بهما النصارى واليهود وآذوا المسلمين ، فعمد بعض أهل مصر وكتبوا قصة ورشقوها على تمثال ، جاء فيها:

" بالذي أعز اليهود بمنشأ، والنصارى بعيسى، وأذل المسلمين بك، إلا كشفت ظلامتي."

وقد راج شعر ينتقد الوضع في عهد الخليفة العزيز ، استنكارا لظهور النحل الاخرى على الملة الإسلامية.

وقد كان العزيز (المولود بالمهدية في افريقيا) لا يتردد في اصلاح سياسته، فقد سعى الى القبض على كل من تناله انتقادات الناس، وإلى محاسبته، إذ كان عهده لا يزال غضا في عمر الخلافة العبيدية، لذا لم يستشر الضعف في زمنه، الا ما كان من توليته الأجانب على المسلمين في بعض المرافق، وهو اجراء رأينا الحكام والخلفاء المسلمين، سواء في بغداد أو في الاندلس ، أو حتى في الدول والممالك المستقلة، يتبعونه، وربما كان الدافع الى ذلك ما كانوا يلمسونه في هؤلاء الاجانب من كفاءة، واتقان، ومن خضوع ، وهي مزايا لم يلمسوها في الحاشية المسلمة المحيطة بهم.

لقد رأينا بعض الخلفاء العباسيين (مثل القائم) يقر يهوديا على أخذ الضمان السنوي الذي كان يمثل فريضة ريعية ينالها الخليفة من

مداخليل الانتاج الزراعي ليعود الباقي إلى الضامن يتصرف به في ادارة الحياة العامة .

وكان الحاكم الأندلسي باديس بن حبوس الصنهاجي، يستوزر يهوديا وقد أثار هو الآخر حفيظة الرعية وارتفعت اليه أشعار الانتقاد والتسفيه.. فالظاهر أن تنفذ الاجانب في شؤون الدول والخلافات الاسلامية، كان يعكس وجها من الوجوه المنبئة باندثار سلطان الخلافات (جمع خلافة) ، على ما في ذلك التتبع من دلائل السماحة الدينية التي يعرب عنها الحاكم المسلم، حين كان يسند الرئاسة الى ذمي مخالف له في الملة، فضلا عن كونه تدبيرا اسعافيا كان الحكام يحاولون به اطالة عمر الدولة، من خلال خدمات أهل الذمة ،والإستئناس بهم ،والركون إلى خضوعهم النسبي وتقيدهم بالانضباط وبتعاليم السلطان.

وربما كان عهد الحاكم بن العزيز أكثر العهود غرابة بما اتسم به سلوك هذا الخليفة من شذوذ ومفارقات، حاز بها شخصه وجه الاسطورة في المخيال التاريخي للمسلمين، لقد تحدث عنه المؤرخ ابن الاثير حديث الشخص الفصامي، إذ وصف من حاله في مبتدأ عهده، ما يجعل منه مثال الحاكم المسلم السمح، الثوري، والمصلح الاجتماعي، الراعي للعلم، المتعهد للمؤسسات والمرافق الدينية والتعليمية.. ثم يسجل انقلابا طرأ على حياته وشخصيته، فنكص به عن استقامته تلك، إذ نكل بالعلماء، وتشدّد في فرض أسس النظام

العام ،بالفصل الجذري بين النساء والرجال مثلا، وكانت نهايته غريبة أيضا، حيث اختفى فجأة ولم يعرف له خبر.

على أنه لا بد أن نتحفظ حين نقوم سيرة هذا الخليفة العبيدي - الحاكم - إذ أن المزاجية التي صور عليها، لم تكن سلبية في عمومها، بل لقد بدا لنا أن الرجل كان على وعي بمأساة عصره، وربما كان متيقنا من اندحار حضارة الأمة، فكانت منه تلك النكسة النفسية الفصامية التي أشار اليه المؤرخون.. وربما كانت نهايته ذاتها تحمل في بعض معانيها المآل الدرامي للحضارة العربية الإسلامية نفسها ..

وينبغي أن نعترف أن جهود الحاكم - قبل اختلاله - كانت موفقة في حقل التوسع الإقليمي، سواء في الشام أو في العراق، بل لقد كانت ناجحة ومركزة وحققت أهدافها ، وقد أفلحت في استقطاب قادة وأقاليم إليها ، بحيث أطمعت تلك الجهود في إحداث الانتعاشة الجماهيرية التي كانت تتجدد مع كل بادرة عسكرية لتطويق فضاء التحلل من حول الناس..

وإن إعادة قراءة التاريخ، في كثير من المستويات، لمهمة ماسة ، وهذا لغربلته مما يشوبه من انتحالات، كانت الظروف التاريخية القديمة تسوغها. نقول هذا لأننا لم نستطع أن نتقبل كل ما أورد المؤرخون عن سيرة هذا الخليفة - الحاكم وكثير غيره- إذ الأولى إن

كان كل ما ورد عن سيرته صحيحا ، أن يقال إنه كان مختلا ، فاقدا لصوابه.

أم تراها الإحن والأحقاد المذهبية هي التي شجعت على تشويه هذا الخليفة الذي شهدت مراحل توليه الأولى على قوة نفاذ وإرادة إصلاح لا تتكرر.

وربما لاحظنا شيئا من التشابه في أحوال الخلافتين، من حيث صورية الشأن الذي كان عليه الخليفة العباسي أو العبيدي.. لقد كانت حال المستنصر من الضعف والهوان هي حال طائفة كبيرة من خلفاء بني العباس، إذ استبدت دونهم العسكرية، وطغت حتى على السلاطين وكانوا غالبا قادة عسكريا ، الأمر الذي ساد معه العصيان ليس على الصعيد المدني فقط ولكن على المستوى العسكري بالذات ، وكان ذلك هو الأخطر ، إذ أن تحلل المؤسسة العسكرية لا ينبئ في أي مجتمع أو بلد إلا على نهاية سكية وتمدن ذلك المجتمع ، وهو ما حدث في المجتمعات الإسلامية حين انهار النظام الانضباطي والأخلاقي في الأوساط العسكرية ، فكانت الفتن الاجتماعية، وكان تداعى الفئات الناقمة، وكان الغضب والسلب ، وكانت التمردات والانقسامات.

وذاات الحال كانت عليها خلافة الاندلس تقريبا، وكيفنا تعبيرا عن الوضع هناك، المصير الطائفي الذي آلت إليه تلك الخلافة، وتقرمها

إلى إمارات ، وكل ذلك كان الخطوة الأولى على طريق التردى الذي آل إليه أمرها.

لقد تفككت الخلافة ، وأضحت إمارات تسعها حواضر ومدن ومقاطعات لا تقف حدودها تتراجع نتيجة التغالب بين الأمراء وذلك ما سهل من عملية الافتكاك التي باشرها ضدهم عدوهم الملي . لقد استناموا لشكليات ساذجة ، باصطناع سيادة الملك وبانتحال مراسيمه ونعوته ، الأمر الذي بدا معه حالهم على مستوى من التسفل والسخافة مقيت ، وربما اختزلت أبيات ابن رشيق الشهيرة، التي أرسلها على نحو تحسري أسيف يصف المأل الكاريكاتوري لإمارات الأندلس.. إذ يقول:

مما يبغضني في أرض الأندلس * * سماع مقتدر فيها ومعتضد
القاب مملكة في غير موضعها * * كالهري يحكي انتفاخا صورة الأسد

لقد كانت أعراض هذا التحلل الذي أصاب نظام الدولة الإسلامية ، سواء عبر النظم والكيانات الخلافة الثلاثة أو فيما سواها من الممالك والسلطنات الإسلامية الأخرى، تقتزن باختراق عسكري رومي متصاعد، شمل الاندلس وطال بلاد المغرب و مصر والشام.

وحسبنا أن نذكر أن صقلية، والقدس، وتخوما عدة في الاندلس والأطراف الشامية والمغربية قد سقطت في أيدي الصليبيين، وكان سقوطها يعكس مرحلة من العد التنازلي مؤذنة بانهايار اسلامي

حضاري مفعج، رغم مظاهر الانبعاث التي لبثت تتجم هنا وهناك، سواء في بلاد الهند وأصقاع آسيا، حيث كان الإسلام ينتشر بصورة شبه تلقائية، أو في داخل كيان الدول الإسلامية المركزية من خلال مساعي التفكير والتجديد السياسي التي كان أصحابها يؤملون من ورائها أن يتداركوا الوضع، قبل فوات الأوان..

وهكذا ففي الوقت الذي كان التاريخ يقلب فيه صفحة بني بويه بالشرق، ليحل محلهم عصبية قومية أخرى هم السلاجقة، وذلك عام 432هـ، نجد دولة أخرى بالمغرب تنبعث من جوف الصحراء الغربية لتحل محل دولة الطوائف بالاندلس، ولتكون إلى حد ما، حاجزا بين دار الإسلام، ودار الكفر.. إنها الدولة المرابطية التي ظهرت إلى الوجود عام 448هـ.

فالصحراء المغاربية ومعها بلاد السبئية- وابتدأها يمكن أن يكون الأطلس الصحراوي فما تحت- طفقت منذ ذلك الحين، بل وربما قبله، تهب لنجدة وإطالة عمر الحضارة العربية الإسلامية، ولبثت تسعفها بالمدود تغيث بها الحواضر وتسدن الدول، بيد أنها كانت في غضون ذلك، تقلص مع كل هبة ووثبة من نطاق العمران الذي كان داء الهرم المبكر قد داهمه، نتيجة فواعل ذاتية وموضوعية متكاثرة، انعطفت بالتاريخ صوب المنحدر.

المردود العلمي والثقافي لدار الإسلام في القرن الخامس والسادس الهجريين

قلنا ان هذا العصر كان عصر ما بعد النضوج، ولنسمه عصر الاختراف(من الخريف).

فالتراكمات الثقافية والعلمية التي تبلورت للمجتمعات الإسلامية عبر مرافق ثلاث خلاقات، ومعها شتات من الدول والإمارات، كانت حقا تراكمات كثيفة ومتواترة في الآن ذاته، وكان القرن الرابع الهجري قرن الإستواء الحضاري بلا منازع. إذ كل فرع معرفي وعلمي قد أغل محاصيله التي غدت قنوات التوصيل العالمية أنثذ (طلبة - تجار - جند - كتب - قوافل، الخ) تبثها في الأصقاع والأوساط على نحو تنويري ظاهر.

لقد أزاح النورماند المسلمين عن صقلية ولكنهم ظلوا أمدا يباشرون مهام الإدارة، والتدريس، والتهديب الاجتماعي، والبروتوكولي.. بمعارف المسلمين وبقيم حضارتهم.

وكان هذا شأن امارات ايطاليا واسبانيا وفرنسا وجملة من بلاد الحوض المتوسطي والأوروبي التي كانت تنتهي إليها معارف المسلمين وتقنياتهم العلمية والثقافية.. فكانت تلك البلاد تأخذ بها، على اعتبار أنها محاصيل معرفية وثقافية ومدنية راقية وناجزة، وذات فعالية تستصلح بها قليلا أو كثيرا أحوال المدنية وممارسات الناس هناك.

واتسم القرن الخامس وما تلاه باطراد التقهقر ليس فقط على مستوى الفتوح والتوسع - فانتشار الاسلام الذي ظل متواصلا في آسيا، كان من بعض وجوه انتشارا تلقائيا، محليا، ولا سلطان مباشر للخلافة العباسية أو العبيدية عليه في الغالب - ولكن التقهقر كان يصيب أيضا مستوى الاستقرار والمعيش المدني والأمني، وما يترتب عن اختلالها من تدهور شامل يمس المجالات العلمية والفعاليات الابتكارية، ويؤثر على الذوق والمشرّب، وينزع بالناس الى التوحش.

لقد تواترت مشاغبات الجند وتصاعدت الفتن التي كان العيارون يفتعلونها ووازي ذلك الوضع مناورات السلطان وصراعات المذاهب واجتياحات الأعراب والأكراد والاختراقات الرومية، والصدام بين الكيانات والدول الاسلامية.. وذلك ما حول الانسان المسلم من صانع للحضارة، ومصدر للنور، الى انسان يستهلك المرصودات من تراثه المادي والادبي في شبه هستيرية واستسلام مفجع لما يتهدهه من أخطار.

وكان احساس الناس بالاغتراب والضياح وانعدام المرجعية الكافلة للعدل والعدالة، لايفتا يزداد، لتزداد معه فصاميّتهم، فهم من جهة ما برحوا يمثلون محور الكون بحضارتهم التي كانت معطيات مدنيّتها قد توطدت عبر واقع عمراني وارتقائي مشهود.

وهم من جهة أخرى أضحوا فجأة مثالا للتحلل وافتقاد الرشد الاجتماعي والثقافي الذي ظلت تجسده لديهم قيم الاتزان، والسماحة، واردة التطور وتحقيق الفعالية والنفاذ في عصر القوة والنماء.

ومع ذلك فقد بقيت هناك فواعل فكرية وثقافية، استمرت تمارس نشاطها التثويري في ظل هذا الواقع الحضاري المتدهور.

لقد باشرت الحياة الاجتماعية والعمرانية عصرئذ مسارا مؤلما نحو التبدّي والتوحش الحضاري. اذ أعاقّت الهزات والفتن الاجتماعية والثقافية مسار المدنية وحدثت من توسعه، وإزاء ذلك اتسعت مساحة التبدّي والتقهقر العمراني بشكل يتوازي أو يفوق مساحة الواقع الثقافي الأرقى المنجز في عصور الازدهار على مستوى الحوضر والميتروبولات العمرانية الاسلامية.

لقد تباين المستويان الريفي والحضري، وبقيت المدينة، رغم ما كان يعتل فيها من مخاضات وتمزقات، فضاء الإحتكاك والمحافظة على الأعراف، والصمود في وجه التّحديات..

وأضحت السبادية، بعد أن كانت مصدر المعرفة الأصل ومثابة التحصيل وتأصيل المعيار وموطن الرواية وجمع المادة اللغوية والشعرية التي تتوثق بها روحية الأمة وفكرها، أضحت فضاء للقلق، إذ تردت في دوامة العنف ومجدت أخلاق الغلظة والغضب، وعادت الناس روح الأيام والحروب وتعاطوا مساجلات

الغزو والنهب ، وزايلتهم روح النخوة والفروسية كما كانت تجسدها الحياة البدوية قبل الإسلام وفي عهود أولى من عمر الدولة الأموية.

وإذا ما اعتبرنا بسيرة أحد فتاك العرب البداة المشاركة في هذا العصر، وهو المدعو صدقة، فإننا سنجد لها سيرة تمثل الأريحية البدوية في عزها وشممها، وتمثل أيضا مظاهر غرورها وقصورها عن الماضي قدما على طريق انتاج الحضارة .

لقد كان صدقة هذا أحد مشايخ العرب الذين نجمت سلطاناتهم وأخذت شكل كيانات سياسية ، ملأت الفراغ الذي أعقب الانحسار ، وكان ظهور تلك الكيانات يعد نتيجة من نتائج انسلاخ المدنية عن فضاء الجغرافية الإسلامية في تلك المرحلة .

وامتلك صدقة قدرة مادية تضارع قدرة الدولة ذاتها ، إذ اتخذ عسكرية ودواوين ومالية ورعية ، وأبدى تشاغلا بالفن والثقافة وأضحى مقصد المستمحين ، لكن الرجل كان في حقيقة أمره يبني كل مظاهر الملك على المظهر والشكل وتغليف الواجهة الذي لا طائل وراءه² .

- 2 كل ما نامله لإخواننا من أهل الخليج أن لا يكونوا صورة أخرى لصدقة وتجربة معادة من تلك التجارب الظرفية.

أما الدول العربية الأخرى ، فواقعها لا زال يؤكد أن السياسة الرسيمة ، التي يتبناها لإدارتها السلطان المستنير ، والكارزمي ، والديمقراطي ، هي السياسة التي تخرج الأمة من حلقة الفراغ والبوار التي تنحبس فيها.

لقد كان صدقة يتسلح بفطنة أنية ويعتد بفكر لا يتأهل - بسبب عدم التمرس - لمزاولة التنمية والاستمرار في صون دواليب الانتاج، وتحقيق الغاية البناءة.

وحاله في ذلك حال قوى أعرابية بدوية أخرى انتشرت على مدى مساحة البلاد الإسلامية مشرقا ومغربا.

فالإمارات البدوية (بنوقرواش مثلا) التي أقامت حماها في النواحي المترامية ما بين الشام والعراق ، كانت اعتراضات تدمينية ايجابية، تتدرج ضمن سياق حضاري كان يحتضر وينهار. إذ كانت القيم تعاني من التهجير المعاكس في اتجاهين متعارضين : قيم البادية تنزح نحو الحاضرة لتتجسد في صورة فجاجة مدنية وحرمانا نفسيا وماديا، وضغينة اجتماعية ورهقا روحيا ووجدانيا عبرت عنه انفجارات شتى، لعل فتن طوائف العيارين كانت واحدا من مظاهرها.

وقيم الحاضرة التي كانت تلوذ بالبرية، في تقهقر، قد لحقها رهق التعقيم وخذلها التسييب الذي لم تلبث المعايير معه أن اختلطت وفقدت مضامينها، بل لقد انقلبت تلك المعايير ، واكتسبت قيما مضادة تماما لما كانت تمثله وتعكسه .

وهكذا انخرطت مجتمعات المسلمين من جديد في سلك التغالب وتحقيق الشخصية الانعزالية وحفظ الوجود المنكمش على وجه باتت وسيلته هي الشراسة والفتك بالغير.

لقد عاش صدقة أميا، يمتلك مراصيد المال وينتقي الكتب، ويقرض الشعر بالسليقة، ويتحلى بأخلاقيات المتمدنين، وينافح عن ثقافة (الرجولة)، لكن رعى الصراع داهمته، وجرفته في دوامتها وانتهت بأن أردته، وبوفاته انتهت تجربة نموذج وسيط لكيان شبه سياسي تمازجت في صوغه قيم العصبية في تجلياتها البدوية، وقيم المثاقفة في صورتها الإفتعالية الفجة، ليبدأ شكل صراعي جديد بين فواعل التوحش وفواعل التمدن، سيكون فيه الحسم لفائدة الانحطاط والجمود على حساب الحضارة .

وسيسجل التاريخ من صور هذا الصراع، وفي شتى الأقطار الإسلامية، ملاحم انتحارية مفجعة يكون ضحيتها الانسان المسلم الذي وجد نفسه يهوي فجأة من شاهق الحضارة إلى الحضيض، وسيكون حظ بلاد المغرب العربي والأندلس من هذا الصراع كبيرا، وهو ما سيلهم بوقائعه التي أخذت شبه منوال تحولي انكساري، قريحة مفكر مفجوع بمآل مدنيات الإسلام، هو ابن خلدون، الذي صاغ أسس نظريته في ظاهرة التبدلي والتحضر -كما أسلفنا- على ضوء ما عايش من ممارسات كابدها الإنسان المسلم في عصور اندحاره.

وعلى مثل هذه الحال من الأمية التي عاشها صدقة، كان يعيشه قادة وسلاطين مسلمون آخرون عاصروه أو أعقبوه.

لقد كان الأمير قرواش، وهو أمير الاعراب في بلاد ما بين العراق والشام، على جهل بالدين سافر، إذ نجده يجمع بين الاختين في

زواجه، وتلك حال تؤكد ظاهرة التوحش، والبعد عن ثقافة المدينة، تلك الثقافة التي كان جوهرها الدين والتنوع المعرفي.

ولقد رأينا بعض السلاطين العجم يحيط نفسه بزمرة من أصحاب الثقافة العربية، لينتلق منهم قيمها، وذوقها، وبيانها..ترقية لمستواه من المدنية واستكمالا لعدة الرئاسة، إذ أضحت الرئاسة تقرن في يدها الصفة العسكرية بالصفة الثقافية تعزيزا للجانب الشخصي، وإضفاء للحرمة على السلطان..

وبات امتلاك الثقافة أمرا ممكنا، بانتقاء المثقفين ومن يعرضون أنفسهم ليكونوا طرفا من زينة السلطان. إنها مرحلة الاستهلاك. استهلاك الحضارة، التي أعقبت مرحلة صنعها وانتاجها.

ولقد كانت الحاشية تضم أهل الأدب والفقهاء، جنباً إلى جنب مع المضحكين وأهل اللهو والطرفة..

وإنه لمن اللافت للإنتباه أن ترجح بين السلاطين والحكام كفة اللهو والتهتك على كفة الجد والوقار في ذلك العصر، بل وحتى في ما قبله من عهود، فبعد أن كانت سيرة الرشيد تعتبر نموذجا لنوع من التوازن والإعتدال في هذا الشأن، إذ مات وهو على صهوة حصانه يتفقد الثغور ويقوي من روح الفتوح ويوسع من دائرتها، انغمس الحكام المسلمون بعده أكثر فأكثر في المتعة، وظهرت ثقافة

الترفيه وراج فقه الاستمتاع ، ويدخل ضمنه طبعا فتاوى تحليل النبيذ وهلم جرا.

بل إن عدة الترف، ومنها فواعل الاضحاك، لم تعد تنهياً في ظل هذا التقهر، لا للخليفة ولا حتى للسلطين والولاة ، نتيجة النضوب الحاد للثروة، واختلال شروط الأمن ، وفقدان وازع الطاعة، واستحكام روح الانتقام، واستعار نار الفتن في الأوساط .

ولقد رأينا في بعض الأطوار لجوء الناس بأموالهم إلى الأحياء السلطانية ، بل وإلى مجاورة دار الخلافة في تخير أماكن إقامتهم، وذلك هرباً من أعمال الغصب، لكن مدامات اللصوص والفتاك والجند الغاضب كانت تستهدفهم حتى هنالك ، بل لقد كانت تشمل دار الخليفة ذاتها، فتنهب امتعتها ومدخراتها ، كما حدث ،مثلا، على يد جيش طغرلبيك، حين نزل بغداد، وتصادم مع السكان...

لقد بدا لنا القرن الخامس قرنا غروبيا حقا ، غلبت فيه أدواء التحلل والفناء على دينامية التماسك والحياة..

وحدث على المستوى الثقافي والتتويري ،ازدواج معرفي وازى ذلك الإزدواج الذي رأيناه يميز المستوى السياسي من حيث بروز ثنائية على مستوى المؤسسة السلطوية ، إذ تناظر الخليفة مع السلطان.

فقد رجحت الثقافة الشفوية -ثانية- من خلال رجحان الطبقات الشعبية وطفوها على السطح بظهور تلك الكيانات والحركات السياسية التي كانت الأوساط البدوية والشعبية تسهم وتفاعل بها الأحداث والواقع من حولها.

لقد أفرزت تلك الأوساط قيمها وثقافتها واصطنعت ضمن محيطها، خطابها المميز وفنونها المعروفة ، وانزاحت بالمخيل والذوق نحو قيم المشافهة واعتماد اللحن على حساب الفصاحة..

وسوف يتبلور نتيجة ذلك الجنوح الإرتكاسي مرصود فني وجمالي من الشعبيات السردية والذي كانت أعمال التغريبة الهلالية، وحكايا ألف ليلة وليلة، وملاحم عنتره ، وسيف بن ذي يزن، وغيرها، من عيونه الفنية.

لقد انفسح المجال واسعا أمام ظهور الشخصيات السوقية، والقادة الأميين، والزعماء الشعبيين الذين كانوا لا يخلون من شيء من الاحساس بالمسؤولية ، أو ممن كانت الظروف تزج بهم في معمعان المطاحنة السياسية والعسكرية والسلطوية من غير أن تكون لهم العدة الثقافية التي تساعد على النهوض بالتسيير والتنفذ وتثبيت السلطان المدني في المجتمع.

لقد باتت ضرورة التبليغ والتوجيه والتحكم السلطوي تحمل البطانة والمحيط على اصطناع الخطاب الشعبي، سواء في شؤون التسيير والإدارة أو في مجالس المؤانسة والإمتاع.

لقد كان مثلاً ابن تاشفين القائد المرابطي الكبير ، لا يستسيغ المطارحات البيانية في مكاتباته مع الأنداد ، إذ كان وضعه بوصفه عسكرياً يواجه الواقع من خلال العدة الحربية - يجعله في غنى عن تدبيج القول ، خاصة وأنه كان رجلاً عملياً يحرص على ألا تحمل رسائله ما يستغل عن فهمه من إنشاءات كتاب وأمرء البيان الذين كان ديوانه يحويهم .

إذ الفعل في مراحل بسط السيادة ، كما كان الشأن في عهده ، يظل منوطاً بالحمية وبالحسم في الموقف وفي الخطاب ، فالأولوية تغدو للإنجاز والإجهاز .

وكان العديد من أمراء البادية في المشرق أميين ، يتذوقون البلاغة بفطرتهم ، ويحرصون على أن تحفل مجالسهم بفنون الإنشاد والسماع .

لقد أضحى وازع أولئك البداء الذين امتلكوا الثروة أن يحيوا تقاليد كانت هجرتها البادية منذ أمد بعيد ، لأن المدنية في عهود الازدهار قد اصطنعت فنونا ورسخت تقاليد مستجلبية من أمم أخرى ، وهو ما غطى طويلاً على ثقافة البادية .

تري هل كانت الذهنية البدوية تنتقم لواقع الجحود الذي عوملت به تلك القيم أم أن مزاج أولئك الحكام البدو قد حن إلى الفطرة ، فاهتدى إلى التعبير عنها على ذلك السبيل .

وبإلقاء نظرة عامة حول الكيانات السياسية التي كان يديرها قادة أو سلاطين وزعماء أميون عبر الخريطة الإسلامية في القرن الخامس ، وما تلاه ، نستبين علة ذلك التراكم الثقافي الشعبي الذي كانت المرحلة منخرطة في إشاعته واعتماده بديلاً أو رديفاً لثقافة المدينة التي لبثت تتزعزع ، منذ حين ليس بالقصير ، وباطراد محسوس ، نحو الخصوصية حتى آل الأمر إلى ظهور ثقافتين : ثقافة العامة ، ولسانها عامي أو جانح نحو العامية ، وثقافة الخاصة ، ولسانها فصيح متعلم ومرتببط بقيم العراقة والمدنية .

بل لقد رأينا البيئة الأندلسية مثلاً توسع لدائرة الذوق الشعبي منذ وقت مبكر ، لتصله بطبقات المتأدبين ، وبجمهور الخاصة ، وهذا من خلال ازدهار الموشحات والأزجال الشعبية السائغة ..

ولا يعني هذا أن القرن الخامس كان عقيماً على صعيد ظهور الألمعيات وتحقيق المنجزات العلمية والمؤسسية ، بل لقد رأينا هذا القرن يشهد ميلاد الأكاديمية العتيقة المعروفة بالنظامية ، والتي كانت مستقطباً مثالياً للخبرات والفضائل العلمية من كافة أرجاء العالم الإسلامي ..

ويهيأ لنا أن الجانب الأكثر دلالة في موحيات ذلك الانجاز العلمي المرموق الذي شكلته النظامية ، يعود إلى الروح والهمة التمدنية التي حققت مثل ذلك المشروع في زمن عاصف بالفتن ، زمن كان حرباً على كل مظاهر المدنية والاستقرار وفي مقدمتها الثقافة ..

لقد كان العنف يطال المساجد ، ومرافق التدريس، والمكتبات، بل إن النظامية نفسها سيشملها عسف الفتن، وسينال منها الحريق في بعض أطوارها .

والظاهر أن نظام الملك قد شاد مدارس أخرى خلال تطوافه في البلاد، أو أن بعض معاصريه من السلاطين قد حذا حذوه فشاد المرافق التعليمية على مستوى ومنزلة ما شيد هو في بغداد.

وربما حملت مؤسسات تعليمية أخرى الاسم ذاته: النظامية ، فقد ذكروا أنه كانت توجد بنسايور مدرسة النظامية ، وقد درس بها الغزالي في بعض أطوار حياته..

إن اسم هذه المؤسسة العتيدة يرتبط باسم موجدتها وهو الوزير نظام الملك، ذلك القائد العسكري الاستراتيجي المحنك الذي ساقه المعترك الى الحاضرة بغداد، شأن كل الوجهاء عصرئذ، لينشئ بها تلك الجامعة ويستقدم اليها نبغاء عصره، أمثال أبي حامد الغزالي، وابن عقيل الحنبلي، والشاشي وآخرين، والتي سيؤمها من الطلبة ، ومن كافة أرجاء العالم الإسلامي ، كثير ممن سيقدر لهم أن يلعبوا أدوارا في بيئاتهم الأم ، ولعل ابن تومرت القائد المغربي ، ومؤسس آخر امبراطورية في بلاد المغرب والأندلس ، أن يكون واحدا منهم.

لقد رأينا انتعاشا ملموسا يعاود العمران في العهد السلجوقي الأول، إذ عمرت مدن كان الخراب قد أصابها ، واسترجع الناس، إلى

حين ، الأمل في رشاد الدولة، وتحولت الخطبة في بلاد الشام إلى الخليفة العباسي ، وأضحت الشكاوى الاجتماعية والتظلمات ترفع الى السلطان.

فالرجاء في تجدد روح الحكم وانبعاث الدولة قد أنعش النفوس، غير أن فواعل الدمار كانت من القوة بحيث غدت مظاهر الارتياح والتفاؤل مجرد اعتراضات أو فترات صحو تتخلل حال الغيوبة التي كانت تكبس على الأمة..

لقد سقط الوزير نظام الملك نفسه بطعنة صبي باطني، دخل عليه خدعة، متظاهرا بأنه أقبل يستغيث من معتد وهمي ، ليغرس في صدر الوزير خنجره.

على أن المناخ العام للمدن والمراكز الحضارية ، سواء منها العربية (بغداد ، دمشق، الخ..) أو المستحدثة (بجاية- المهدية - القاهرة..) كان يحافظ على مستوى من أدبية البيان العالي ، وهذا بفضل ظاهرة الترحل التي نشطت تسقطا للعلوم في مظانها ومراكزها ، على أن أهمية الترحال كانت مناطة بتحقيق مطامح تضيق عنها البيئة المحلية.

فالرحلة في ذلك العصر كانت غالبا ما تكفل الخلاص من العنت السياسي أو المادي ، وتهيئ ملافاة الأنداد والعلماء ، وتقي من

مخاطر الاصطراع والفتن التي تنشب بين المتساكنين في اطار صراع الكتل والعصبيات .

وكانت الرحلة تتيح أيضا استحصال النفع المادي والروحي الذي كانت المواسم والمشاهد تتيحه للرحالة وذوي الحاجة..

كما أخذت الرحلة أحيانا طابع النزوح الجماعي، إذ بتقهقر الحضارة الاسلامية في أصقاع كثيرة (صيقلية - قبرص ..) منذ وقت أسبق ، تراجعت المدنية الاسلامية وتحولت جالياتها عبر النواحي والأصقاع ، متخفية عن حظوظ مادية وأدبية كانت تتمتع بها، ناشدة تحصيل حظوظ أخرى عبر جهات أخرى من دار الاسلام.

لقد كانت الثقافة من خلال ظاهرة التنقل والهجرات تتركز في الحواضر التي كان الاستقرار فيها يغري بالإقامة..

وأضحت أقاليم الشمال فيما يتعلق بالمغرب العربي مستقطب الحركات التعميرية والهجرات، بعد أن ظلت الصحراء، ومنذ عهد الفتح، فضاء الحل والعمران التوطني (القيروان - فاس -توقرت- تاهرت - ورجلان - سجلماسة...).

وسيطلب الناس الأمن والقرار تارة أخرى في الفيافي والواحات، حين سيتغلغل الغزو الصليبي النورماندي والإسباني عبر الثغور الشمالية وتحقق مخاطره بمراكز المدنية هناك..

وذات الأمر رأيناه في المشرق، فحين زحف الروم والصليبيون على شواطئ وثغور الشام وفلسطين ومصر، انحسرت حركة الناس متقهقرة نحو أقاليم الداخل ، وكانت في ارتدادها تطلب أولا المدد والغوث من الداخل ، ثم ما لبثت أن استقرت حيثما اتفق لها الاستقرار في الفضاء الخلفي بعيدا عن العدو وتجنباً لمساكنته.

ومثلما كان للرحلة تأثير في عملية تنشيط الثقافة والعلم وحفظهما من مغبة النكف الكلي الذي كان يتهدهما نتيجة التردّي العام الذي أصاب الأمة منذئذ، فقد كان لوجود العناصر المستنيرة على رأس السلطة في بعض الدول ووجود بطانات من المثقفين قريبا من الحكام في غالبية الدول الاسلامية يومئذ، أثره الإيجابي في صون الثقافة والأدب ، وتوسيع نطاق الفنون ..

وحسبنا أن نذكر إلى جانب نظام الملك ، وزيرين آخرين (وهما بويهان) كانت رعايتهما للعلوم والآداب نابعة من اشتغال ذاتي أصيل.

اذ كان كل منهما أديبا أريبا..وهما ابن العميد وابن عباد..

وتذكر الرواية ان الأول تلقب بذي الوزارتين لتضلعه في الوظيفتين ، واضطلاعه بالمهمتين السياسية والادبية.. وأن الثاني قد تلقب بالصاحب للصحبة التي جمعته مع الأول على عهد وزارته..

لقد كان ابن العميد صارما في منح أحقية الانتساب إلى منتداه الأدبي، ومع ذلك فإنه سلك سياسة تحفيزية روجت للأدب، وعززت الإهتمام به.

لقد كانت الكتب ترفع إليه من شتى أرجاء المملكة، وكانت عطايه تحفز القرائح وكانت تقريضاته للأعمال الأدبية والأحكام التي يقومها بها تقوي من حركة البحث والابداع وتوسع من نطاقها.

ومن أظرف ما يحكى عنه ان الخوارزمي ارتحل اليه بقصد الانتساب الى حاشيته، وحين انتهى إلى بابه طلب ابن العميد الى الحاجب أن يعلم الطارق بأنه لا يسمح بالانضمام إلى مجلسه الا لمن كان مرصوده من المحفوظ عشرون ألف بيت، فقبل إن الخوارزمي وقد أبلغ ذلك، طلب بدوره من الحاجب أن يسأل سيده: هل يريد أن يكون هذا العدد منظوما في النساء أم في الرجال، وذلك تدليلا على سعة اطلاعه وإظهارا لأهليته لأن يجالس الوزير..

و ذات الحال كان عليها ابن عباد..اذ كان يستقطب النوابغ، ويسند إليهم المسؤوليات مثلما صنع مع العلامة عبد الجبار المعتزلي، الذي ولاه القضاء على الري وعلى أعمالها.

وفي ما يخص الخلفاء، فإننا وجدناهم، رغم حالة الخور التي كانوا عليها، يلعبون دور المرتكز والضامن الروحي لمنظومة القيم، كما بلورتها السيرورة التاريخية في جدلها العقدي والتقدمي.

لقد رأينا كيف كان إسهام بعض الخلفاء في الحياة العامة كبيرا من خلال الإصلاحات التي حاولوا ادخالها على السلوك والعلاقات والمعاملات، بل وعلى المعتقد أيضا.. فالقادر يعد بحق من المجددين الذين أعادوا للحاضرة بغداد جوا نظيفا من الأخلاقية، ساغ فيه للناس من جديد مذاق التمدن والتحصيل العلمي والتهديبي وحب الحياة.

وكذلك كان حال (الحاكم) العبيدي، على ما شاب اجراءاته من تقلبات مزاجية متطرفة..

لقد بنى الحاكم (دار العلم) وأباحها للفقهاء والدارسين على اختلاف أغراضهم..وحاول ضبط السلوك الاجتماعي، فحصن المرأة، وجعل التعامل معها يتم من وراء حجاب..وستتصدى امرأة من حريمه هو بالذات، لتدير دفة الحكم وسياسة الناس بدهاء وحصافة، ولم تكن هذه المرأة سوى أخته ست الملك..

وبوسعنا أن نستعرض اسماء أدباء ومتقنين يمكن أن يعدوا من ملامح تلك الحقبة، من أمثال الرضى والمرتضى، وقد كان لهما دور تأثيري كبير، إذ كانا أدبيين ذائعي الصيت، وكانت لهما مسؤوليات دينية واجتماعية جعلت اشعاعهما يسري في المحيط..

لقد توليا تباعا مهمة ادارة نقابة الأشراف الى جانب وظائف أخرى كالقضاء ورد المظالم...

كما أن طائفة الفقهاء وأهل الفتوى ، أمثال الغزالي، والشاشي، وابن عقيل، والكنيا الهراسي، وغيرهم ، كانوا يمثلون الوجهة الشرعية والبيداغوجية ، ليس في الحاضرة بغداد وحدها، ولكن وفي أقطار الإسلام عامة ، من خلال ما كان ينشره عنهم طلبتهم وتلاميذهم من جميل الذكر ،ومن خلال رواج مؤلفاتهم ، وتنقلهم في الأنحاء..

لقد ارتحل الغزالي من طوس لينتهي إلى دمشق والقدس، وليكون أصغر محاضر في رحاب النظامية،(كان عمره دون الثلاثين حين انتصب للدرس بها).

وسيكون كتاب الإحياء الذي ألفه في دمشق، بعد مراس تدريسي وفكري وسياسي عميق، مدونه قيم، شاءها الغزالي أن تستوعب الأخلاقية العامة للإسلام كما تدبرها في ذلك العصر الذي تداعت فيه أركان مدينة المسلمين.

إن محتوى ذلك الكتاب يعد ضربا من (الايديولوجيا) الأخلاقية والعملية والروحية التي جابه بها عالم مسلم تصدعات عصره البليغة، فجاءت المواعظ مبطنة بحيرة، متشحة بهم حضاري ، لم يجد حياله الغزالي غير مشاعر التأمل سبيلا لإرساء قابلية المصابرة والمكابرة والإحتمال..

وسيكون هذا المنهج التدويني، العقدي، في بلاد المغرب الاسلامي وسيلة بث الدعوة الموحدية التي كان زعيمها الروحي ابن تومرت

واحدا ممن تتلمذوا بالمعينة أو السماع عن الغزالي، واحتكوا بتعاليم النظامية ، حيث كانت الرحلة قد قادت هذا الفتى المغربي الى بغداد وأوطان أخرى ، ليعود مشحونا بقيم التغيير والتأصيل.

لقد حاول ابن تومرت أن يجعل من مدونته (أعز ما يطلب)، منهاج السير والعمل الذي يميز أصحابه والتابعين لهم في المعتقد والرؤية.

وسينزل القشيري، وهو أحد وجهاء ذلك العصر (ق.5هـ.) بغداد بمناسبة حجة وسيزور النظامية ليعطي دروسا في الوعظ لطلبتها، وسيكون كتابه في التصوف مرجعا آخر تستمد منه طوائف واسعة من أهل الإسلام بعض السلوى والعزاء حيال ما كانت تدهمهم به المرحلة..

كان ذلك شأن جميع النبغاء وأصحاب المهارات ممن كانت تقودهم الظروف الى بغداد..اذ كانوا ينزلون إما في مرفق تدريسي ، أو في المسجد ، حيث يلتقي العلماء بالناس والطلاب ، ويعرضون عليهم بضاعتهم تحت السواري ، أما المبرزون منهم فكان التقليد يقضي بإتاحة صدارة التدريس لهم في أهم المؤسسات العلمية والمرافق التعليمية القائمة يومذاك، مثل النظامية.

ولم يكن العصر يخلو من العنصر النسوي المبرز في العلوم، والآداب..

ويكفي أن نذكر اسم المحدث كريمة المروزية، راوية صحيح البخاري بمكة، والتي كان انتهى إليها علو الاسناد في زمنها كما يقول ابن الاثير، وقد توفيت عام 464 هـ.

والفاضلة الاخرى فاطمة بيت الحسين بن فضلويه، وكانت واعظة، ولها رباط تجتمع فيه الزاهدات، وكانت وفاتها عام 521 هـ.

وسنرى من الاندلسيات والبجائيات نساء يتصدرن المجال الثقافي والتعليمي.

لقد كان العصر يجنح بالامة في حدة واندفاع، نحو الإستكانة الاجتماعية والإنخزال الحضاري، وذلك ما سوغ للناس تقبل القيم السلبية وكيفهم على تقبل الانسحاب والتخلي والانزواء.. وكان لهم في التصوف وملازمة الرباطات ملاذا تناسوا فيه الى حد، واقع الإنهيار الفظيع الذي كان يهوي بهم في الحضيض..

قراءة في سيميائية الاعلام.

عرض كرونولوجي للواجهة الثقافية.. من خلال مشاهير العصر:

قصدا هنا إلى بسط الوقائع التي يمكن أن تستدعيها إلى ذهن القارئ أسماء بعض المشاهير الذين عاشوا في القرن الخامس وشطر من السادس، وعرضنا تلك الوقائع والأسماء في شبه

كرونولوجية على النحو الذي صاغها به مصدرها: كتاب الكامل لابن الاثير:

نعتقد أن القارئ يستطيع أن يتمثل رؤية للواقع المدني العام من خلال تدبره للقيم الفكرية والثقافية التي مثلها هؤلاء الأعلام وجسدتها آثارهم، إذ نحسب أن فكرهم قد ظل يؤثر في روحية الأمة إلى اليوم، خصوصا وأن قطاعا معتبرا من هذا الفكر لا يزال يمثل في نظرنا مستوى من الحيوية بتنا نعهده عنوانا على حادثة اخترقت العصور واحتفظت بأصالتها ووجاهتها إلى اليوم.

لقد تعمدنا أن نرجح في هذا الجرد كفة الاعلام المشاركة، اعتبارا لمركزية التأثير الذي ميز الفكر والثقافة المشرقية بالقياس إلى امتدادها الجغرافي والملي عبر الأرجاء.

على أننا سنفرد لاحقا كشفا آخر لمعالم ووقائع القرن الخامس، بصورة مفتوحة على الخريطة الاسلامية جملة، وعلى أبرز الأحداث التي عرفها هذا العصر، أي القرن الخامس..

427 وفاة ابن شهيد الاندلسي.

428 وفاة مهيار الديلمي شاعر الشيعة، وقد صحب الرضي.

429 وفاة الثعالبي صاحب اليتيمة.

436 وفاة المرتضى

- 444 تصدر قيادة العيارين في بغداد مقدمان هما الطقطقي، والزبيق (مافيا بغداد).
- 484 وفاة البيهقي والدارمي.
- 494 وفاة المعري.
- 450 وفاة الماوردي قاضي القضاة من المنظرين للدولة وسياسة الملك في الاسلام.
- 452 وفاة العتابي (أحد الوجهاء المحسنين) أودع مكتبة اردشير التي أحرقت بدار الكتب ألف كتاب.
- 456 وفاة سعيدوك ملك الجن، وخروج النساء في بغداد لإقامة المناحة عليه مخافة أن يصيبهن أذاه كما أشيع، وكانت ضحكة عظيمة كما عقب ابن الاثير.
- 457 الشروع في تعمیر النظامية: الجامعة الأكاديمية ببغداد.
- 458 وفاة ابن سيدة صاحب معجم المحكم (اندلسي).
- 464 وفاة ابن زيدون.
- 464 وفاة كريمة المروزية المحدثه راوية صحيح البخاري بمكة والتي انتهى إليها علو الإسناد في زمنها.
- 477 الأبيوري يهنئ شعرا بفتح انطاكية.
- 478 وفاة الجويني إمام الحرمين.
- 484 نكبة المعتمد بن عباد وملوك الطوائف على يد المرابطين.
- 485 وفاة نظام الملك على يد فتى باطني.
- 487 الغزالي والشاشي يحضران بيعة المستظهر، بعد وفاة والده المقتدي، والكياء الهراسي مدرس النظامية يجوز شتم اليزيد، والغزالي يفضل الترحم عليه.

- حضور ابن عقيل وابي الخطاب، وهما من رؤوس الحنابلة ببغداد دروس الغزالي في النظامية.
- 488 وفاة المعتمد بن عباد بالمنفى في أغماة بالمغرب.
- 488 توجه الغزالي الى الشام سائحا، وزاهدا، وبها سيؤلف كتاب الإحياء.
- 492 احتلال القدس وذبوع قصيدة الأبيوري البكائية، المتفجعة بحادثة الاحتلال 500. وفاة ابن تاشفين مؤسس الدولة المرابطية.
- 505 وفاة الكياء الهراسي.
- 506 وفاة الغزالي.
- 507 وفاة الأبيوري، والشاشي الفقيه الشافعي.
- 513 وفاة ابن عقيل.
- 515 وفاة الحريري صاحب المقامات.
- 521 وفاة ابن برهان، تلميذ الغزالي والكياء الهراسي، والشاشي، وكان بارعا في علم الاصول.
- =وفاة فاطمة بنت الحسين بن فضلون، وكانت واعظة، لها رباط تجتمع فيه الزاهدات.
- =وفاة البطلليوسي اللغوي شارح سقط الزند للمعري، وأدب الكاتب لابن قتيبة.
- 525 وفاة الشاعر ابراهيم بن عثمان الغزي (من غزة) وهو القائل:
- ما مضى فات والمؤول غيب ولك الساعة التي أنت فيها.

ولعل ما يلاحظ في نهاية هذا التطواف ، أن حال الانكسار والخمول التي كانت فواعل التردّي والقهر تكبل بها المسلم، لم تكن المعطى النفسي والنزوعي الوحيد الذي يتلبس الشعور العام للمسلمين، فلقد كانت هناك دعوات وتوثبات عكستها أدبية انتقادية مريرة كانت تتوق الى مستوى من العيش والحياة تسود فيه قيم الكمال والشروط العلمية المؤهلة للنهوض بالواقع الاسلامي.

فالرؤية لم تكن سوداء كلها ، ولكن كانت بها بروق وبثوق للأمل والرجاء ، غير أن عوامل الضعف طغت على عوامل القوة ، مما كان له الأثر على وقوع الأمة آخر الأمر في درك ذلك المصير .

لقد ظل احساس الواعين من أبناء الأمة بالوضع الشاذ الذي بات يعيش فيه الإنسان المسلم يحملهم على التنديد بوضع المدرسة، وتلب المستوى المنحط للمدرسين ، وتحميل المعلمين مسؤولية تلك النتائج الوخيمة التي كان يفرزها ذلك الوضع الجانح باطراد نحو تكريس التردّي الثقافي والحضاري.

وربما كانت أبيات الفالي التالية تعبر عن ذلك الواقع:

تصدر للتدريس كل مهوس	بليد سمي بالفقيه المدرس
يحق لأهل الحلم أن يتمثلوا	ببيت قديم شاع في كل مجلس
لقد هزلت حتى بدا من هزالها	كلاها وحتى سامها كل مفلس ³

³- لا تزال المدرسة عنوانا على كل ترد أو نهوض. وعلى قدر توفيق الأمة في بناء المدرسة الصانعة لدعائم الحياة على قدر احرازها لكل مجد وعراقة .

لقد كانت المدرسة ومازالت وستظل هي صانعة المصائر، وإن دورها لثابت، في تشكيل ذلك المسار الذي عرفتة الحضارة العربية الاسلامية ، ماضيا ، وحاضرا، وستعرفه مستقبلا.. فهلا وعينا الدرس..

البربرية.. التاريخ.. والاجتماع.

ميلاد الدولة الحمادية

في مبدأ القرن الخامس وفي أواسط القرن السادس الهجريين عرفت الجزائر قيام كيان سياسي وحضاري عد أول تجسيد محلي للدولة الجزائرية بخصوصياتها الإسلامية البربرية.

لقد أدى تنقل العبيديين ، تلك الدولة ذات المطمح الأمبراطوري ، نحو المشرق، إلى ظهور الدولة الزيرية التي كانت تحكم افريقيا (تونس) وامتداداتها الشرقية (الجزائر) والصحراء وطرابلس..

لقد كانت قابلية التفكك تميز الروابط والعلاقات بين المركزية العبيدية التي جعلت من القاهرة حاضرتها، وبين الأقاليم المغاربية التي تحولت عنها والتي كانت تعدّها مناطق أصل، في خارطة نفوذها..

فحينما تحرك العبيديون قاصدين مصر ، كانت الغاية السياسية والمذهبية تصور لهم من الآمال والأحلام ما يبرر ذلك الارتحال

الأهلي الشامل الذي تحولت به الدولة بمختلف مؤسساتها ومرافقها وبنائها المادية والأدبية من افريقيا الى مصر وكانت النتيجة المتوقعة لذلك الإنسلاخ السياسي والإداري الذي فصل بلاد المغرب أو جزءا منها عن العبيدية ، هو افتقار مناطق شمال افريقيا الى الغطاء التسييري الذي كانت مؤسسات الدولة العبيدية ودواليها تكفله.

حقا لقد خلف العبيديون وراءهم محلية زيرية اضطلعت بشؤون الإدارة والحكم وضمان النظام والأمن في البلاد ، وجسدت روح السلطان العبيدي إلى حين ، فقد مضت فعلا، سنوات وأمور البلاد تسير في كنف النظام والاستقرار، ثم حدث الإنشطار.

لقد انقسمت الأسرة الزيرية على نفسها، واستقل الفرع الحمادي منها بنواحي الغرب، واتخذوا من القلعة حاضرة لإمارة ظلت تداري الظروف نشدانا للحياة والبقاء..

لقد كان المغرب العربي واقعا في قسمه الغربي تحت سلطان بني عامر الأندلسي، فقد اصطنع بنوعامر إمارة مغراوة الزناتية التي كانت قائمة في تلك النواحي ، وكان حتما أن تحكم جدلية التنافي العلاقة بين الطرفين: إمارة مغراوة والزيريين .

وفي خضم ذلك الصراع كانت هناك إمارات وليدة وأخرى قائمة لا تقفأ تحجز بين مغراوة والدولة الزيرية وتحول دون

صدامهما وتطاحنهما، (من تلك الإمارات مثلا، إمارة بني توجين بشلف وشرشال والونشريس).

وكانت الرقعة الوسطى تابعة للعامل الزيري حماد الذي ظل ينافح عن حقه في الاستقلال، فقد نشط في رد عدوان مغراوة عن الدولة الزيرية، وبذلك نال عمل أشير حيث سيؤسس القلعة في ما بعد ، وحين عصفت الهزات الداخلية والقبلية بالدولة الزيرية ، تنازلت المركزية لحماذ عما في يده من أعمال ليسيروها في شبه استقلال، لكن ظهور حماد كحاكم طموح، وعسكري استراتيجي جعل المركزية الزيرية تتوجس منه خيفة ، فسعت لإستيعابه دون جدوى.

فلقد أعلن استقلاله من طرف واحد، وجسد ذلك الإستقلال في خطوات عملية متطرفة، إذ قتل الرافضة ، وأظهر السنة، ورضي عن الشيخين ، ونبذ العبيدية وراجع العباسية ، محدثا الشرخ بين المغرب والخلافة العبيدية المستقرة منذ حين في مصر ، فكان لابد أن تزحف إليه قوات الدولة الزيرية وتداهمه..

وبعد حصار طويل كاد أن يقضي على آمال حماد، أدركه الفرج، إذ مات فجأة باديس سلطان الدولة الزيرية ، وتراجعت القوات الزيرية التي كانت تحاصر حمادا ، وحدث ما يشبه التفاهم وأعيدت الصلة بين جناحي العائلة، وتنازل المعز لحماذ عن أقاليم المسيلة وأقطارها، وسارت الأمور في اتجاه يعمق الاستقلال السياسي للدولة الناشئة ، الدولة الحمادية.

الواقع التاريخي العام..وميلاد دولة بني حماد

ان القاء نظرة بانورامية على الواقع التاريخي العام لتلك المرحلة، وعلى مقدراتها الاستراتيجية والحضارية، سيعطينا صورة تقريبية ليس فقط عن البنى والكيانات السياسية والإدارية (دول - امارات - خلافات - امبراطوريات) المتفاعلة في ذلك الواقع ، ولكن سيكشف لنا أيضا عن العوامل والكيفيات والشروط التي كانت تحرك ذلك الواقع وتتحكم في آلياته وتحدد نتائجه.

البساط الإقليمي الإسلامي :

مما لا شك فيه أن واقع الترهل الباكر الذي اعتري كيان الخلافة العباسية في بغداد، حمل معه عوامل تجدد تجسدت في دعوة دينية سياسية فاطمية تجرثمت بالمشرق منذ أن أطيح بالخليفة علي (ر)، وظلت تتذرع بالأسباب وتهمي الخطط والوسائل، وهذا سواء في بيئة الحجاز، حيث ظلت العلوية دعوة سرية، تبحث عن المجال الحيوي لنشر نحلته، أم في بيئة الشام ومصر، حيث كان الدعاة العلويون يجدون المنعة والمأوى ، بعيدا عن الرقابة المركزية التي كانت بغداد حاضرة للسلطان، ترصد بها كل نشاط مناوئ للخلافة العباسية.

لقد استهوت رجال الدعوة العبيدية بلاد المغرب بما تتميز به من بعد عن السلطان وانفساح اقليمي غير محدود وقابلية عاطفية لآل النبي لدى السكان لاتخفى.

لقد أيقن العبيديون أن سني السرية قد حرثت الأرضية لهم وهيأتها للإثمار ، فانقلوا إليها واستطاعوا أن يتجاوزوا الضوابط

والمخاطر التي تصدت لهم في البيئة المغربية ، تلك البيئة التي ظلت منذ الوقت الرسمي ملاذا استراتيجيا مهما تأوي اليه الحركات السياسية المتمردة على سلطان الخلافة في بغداد..

ان الفضاء الإقليمي الشاسع الذي اشتملت عليه جغرافية الدولة الإسلامية ، والذي كان ما زال يتوسع في ذلك العهد ، رغم بوادر الانحسار التي سجلت هنا أو هناك على أطرافه ، بقدر ما كان له من الايجابية والحيوية بالقياس الى ازدهار المراكز والحضائر الأم داخل نطاق الدولة ، بقدر ما كان له من السلبية على وحدة الدولة وتماسكها .

لقد كانت الأقطار التخومية والأقاليم القصية الإسلامية بيئات مواتية للثورة والتمرد والإنعزال والاستقلال ، بفعل العامل الجغرافي الذي كان يشجع على الانشقاق .

إذ كانت وسائل الضبط والاتصال والهيكلية والتنظيم المحدودة والاجراءات الظرفية المتقطعة ، لاتكفل للمركز / بغداد أن يبسط نفوذا حقيقيا مستديما ، قارا على أرجاء الدولة ، بل لقد أضحت كثير من التفعيلات المركزية للأوضاع والمجتمع تساعد على وقوع تلك الانقسامات والتفتتات التي كانت الخلافة لا تستطيع مواجهتها بما في يدها من امكانات الجند والتجنيد الناقصة، ولما يميز سلطانها من نفوذ لا يزال يتدنى باستمرار تقريبا.

وإذا كان ميلاد الخلافة العباسية كان يقتضي -تحقيقا لوجوده - استئصال الخصم الأموي وافنائنه ، فإن انبثاق خلافة أموية مضاهية ومتمكنة في الأندلس ، ما كان ليقع لو لم يساعد عليه ، ضمن فواعل أخرى، العامل الجغرافي المترامي.

فالشرط الفضائي المفتوح كان من أهم عوامل التجدد والتشكل السياسي الذي ظلت البنى الادارية والاجتماعية الاسلامية تعيشه. كما كان أيضا من أهم أسباب التهدم والتفكك المقوضة للدول ، وذلك لعجز المركزيات عن التحكم في الأواصر والأطراف.

جدلية الشكل والتشكيل:

وإذا نظرنا الآن إلى طبوغرافية الكيانات السياسية الاسلامية في ذينكم القرنين، أمكننا أن نلاحظ أن هناك حالات من التشكل اكتسبت مع الزمن صفة الوضع القار، وحالات أخرى كانت حركيتها العارضة في الزمان والمكان تضيف عليها صبغة التشكل السياسي الطارئ الذي يسعى إلى تحقيق الاستقرار والتماهي في بنية ثابتة ذات مشروعية..

من هنا يمكن القول إنه في ظل الوضعين السياسيين : الوضع المتشكل الراسي القار، الذي أضفى في الوجدان الديني والسياسي مرجعية أصلية، تحرك الحياة من مستويات عدة ، ونقصد بها دولة "الخلافة" بوصفها كيانا سلطويا وروحيا راسخا تتماهى فيه قيم

ومرموزات مرتبطة بالوجود الجمعي ومتجسدة في عواطف ومفاهيم موحية، تحيل عليها مصطلحات من قبيل الأمة - البيضة- ودار الاسلام.. والوضع الطارئ الذي ما تفقأ تسببه احتمالات تستمد مبرراتها من عناصر التشكيل الداخلي أو الخارجي أو منهما معا.. ضمن هذين الوضعين قلت كانت دار الاسلام تحقق مورفولوجية كينونتها السياسية والمدنية ، وتصنع مضامين هويتها الحضارية، من خلال جدل التفاعل القائم بين الدول والإمارات والهويات الجماعية التي كان يولدها المخاض التاريخي والحضاري ، ويصوغ منها بيانية الإنقسام والإلتئام الناشئة عن واقع تسلسل المدافعات العسكرية والسياسية والفكرية، وما يرافق تلك المدافعات من عوامل ذاتية وموضوعية توجه المنحى الإجتماعي الاسلامي العام في تلك الحقبة..

فالتشكل كان قوامه خلافة مركزية عباسية -أما- تتلقى أسباب الحياة من داخل وخارج فيزيولوجيتها الإدارية والاجتماعية والإقليمية، وهذا من خلال امدادات القلب والأطراف ، وخاصة مناطق فارس وآسيا الوسطى،وما وراءها.

وكانت هناك خلافة صقعية، آل بها الأمر إلى أن تنتشر ذم وتتمزق ،هي خلافة بني أمية بالأندلس التي أضحت مدنا وأقاليم مفككة تعاني توترات البقاء من خلال المناورة الداخلية مع الجيران الأشقاء، والمغالبة الخارجية المتمثلة في العدو الصليبي. وستلطف هذه الخلافة أنفاسها في القرن الخامس على يد قوة انبثاقية سترسل بها الصحراء في مد تشكيلي آخر قام به قبيل المرابطين..

وكانت هناك بين كياني الخلافة الأم : بغداد، والخلافة الصقعية : الاندلس ، خلافة ناشئة : هي العبيدية ، والتي مضت تجر ذيل سيادتها على أقطار المغرب ومصر، متقربة بتحويل حاضرتها من المهدية الى الفسطاط ، من مراكز التأثير والاشعاع التي كانت تتمثل في أقاليم الحجاز وبيت المقدس ودمشق وبغداد..

والى جانب هذه الكيانات المحورية البارزة وفق تناسب متفاوت، كانت فواعل التشكيل دائبة في إفراز المتغيرات المادية والثقافية التي ستصنع مزيدا من الاحداث وتطبع المراحل وتحدد الصيرورات.

ففي بغداد كانت البيوبهية، تلك الدولة التي رشحتها معطيات تاريخية لأن تضطلع بدور المرتكز السياسي والعسكري والثقافي للخلافة العباسية حينما من الدهر ، قد آذنت بالإنذار، ليحل محلها تشكيل سياسي آخر هو السلجوقية.

وكان المحيط الجغرافي والسياسي لدار السلطان ببغداد ينحسر باستمرار لصالح كيانات وامارات تتوالد مثل الفقاقيع الصابونية هنا وهناك .

فقد قامت مشيخات لا ماهية سياسية لها إلا ماهية الإرهاب والسطو الجماعي كان يديرها شيوخ البدو .

وكانت امارة بني حمدان بحلب من أهم البنى السياسية التي حظيت بالاعتبار السياسي والثقافي ، وقد كانت هي أيضا عرضة لزعازع الغزو القرمطي، والمصري : الطولوني والاخشيدي ، كما كانت الهلالية وقلول الأعراب تمارس ضغوطها على هذه الإمارة - الحمدانية- وعلى غيرها من الحواضر، وسيتعمق التأثير الفاعل الذي كان لهذه القوى البدوية في بلاد المغرب العربي ، حيث سيلعب رحيل الهلالية الاستيطاني هناك دورا بارزا في تنشيط حركة واسعة من التشكيلات السياسية والثقافية ستمتد آثارها في تاريخ بلاد المغرب على مدى العصور..

وعلى المستوى الخارجي ، فإن الحمدانيين ظلوا منخرطين في حرب ضد العدو الرومي الذي كان يسعى الى تحقيق مزيد من الاختراقات العسكرية في دار الاسلام.

أما في الغرب الاسلامي فإن الخلافة العبيدية قد وثبتت على دولة الأخشيد ، ووسعت من نطاق نفوذها على كامل افريقيا الشمالية، ثم ما لبثت أن طوقت الشام بالعسكر المغاربة الذين أخذتهم في رحيلها الى مصر، والذين كان تعدادهم يبلغ مئات الآلاف ، وراحت تتوسع ببأسهم في المجال الإقليمي من حولها، وكانت غايتها استيعاب الحاضرة ببغداد ليتسنى لها أن تفتك الرمزية القداسية ، وأن تحوز شرط تمثيل الأمة وقيادتها على مبدأ الشرعية الدينية والسياسية..

ولاشك أن الخلافة الأموية بالاندلس في هذه المرحلة كانت تعيش ساعة غروبها رغم أنها كانت تمتد الى داخل المغرب الاقصى سبتة -البصرة -فاس -وسجلماسة، تلك الأقاليم الزناتية التي كانت تتبع الخلافة الأندلسية أو تسير في فلكها والتي سيستردها يوسف بن بلكين⁴ إلى حاضرة افريقيا العبيدية في إحدى خرجاته إليها..

لقد كانت عملية التشكيل ، في خضم هذا الاطار الخلافي (خلافة) تفاعل مكونات الثبات، وتبلورها بصورة مطردة ، وعنيدة ..إذ كانت عوامل البثق السياسي متوفرة ، وكانت آلية التحلل والتماسك تتحقق بواسطة الفعل العسكري.

فالمغالبة وسياسة التخضيع القهري هي وسيلة فرض مبدأ التساكن وضبط النظام وإرساء أسس المعايضة.. يضاف إليها التفعيل الفكري والمذهبي الذي كانت الدول تعتمد وتبرر به وجودها ، وتتندم به إزاء رعاياها وأقاليمها..

القوى الفاعلة..في عملية التشكيل.

والملاحظ أن نطاق كل خلافة، في ذلك العهد ، كان يحوز شرطا تحريكيا وتأثيريا قوامه تلك القوة الخام: القوة الثالثة ، الممثلة في البدو أو في جماهير الريف غير المهيكلة ، والتي لم تفلح الدولة/السلطان في استيعابها، ولم تحسسها بأصالة عضويتها في كيان

⁴ - بلكين اسم علم ، يكتب أحيانا بالقاف ، وأحيانا أخرى بالعين ، ويقال أنه جيم مصرية.

الدولة أو الأمة ، فخرجت تستجيب لكل داع يحشدها ويحدد لها أهدافا اغتنامية ، تحت هذا الشعار أو ذاك.

لقد كان السلطان يحوز الجند، أو كان الجند-على الأصح- يحوز السلطان ، لتتشكل بذلك الطبقة الأولى المكونة للدولة، والمديرة للسياسة العامة، وكان من جهة أخرى المجتمع المدني، وقوامه المثقفون والتجار ، وأهل الحرف ، وسكان المدن، أو المتمدنون. هو الطرف المناظر للطرف الأول ، والطامح إلى مقاسمته الشأن العام والحكم والفوائد.

ومن هذين الإحداثيتين تمتد العلاقة الإستقطابية ، وتقوم حركة المدافعة والمجاذبة ، وتشتبك فيها عناصر وقوى ذاتية وموضوعية ترسم باعتراكها مسار تاريخية المجتمع .

وإذا كانت أرضية الاجتماع والعمران الخصبة إنما هي هذه الأوساط المدنية الفاعلة والمبدعة ، المتطلعة الى الاستقرار والى الأمن، لطبيعة معاشها الإنتاجي القار ووظائفها الحرفية والمدنية الثابتة أو شبه الثابتة ، فإن الطبقة الأولى أي طبقة رجال الدولة والجند ، إنما كانت مضطلة بدور المؤمن للسلم الضامن للسكينة .

فالجند في انصياعهم للسلطان، إنما كانوا يوفرون لأنفسهم المناخ المناسب الذي تتحسن فيه أحوالهم، لذا كان حادث الخروج الى القتال

يمثل مناسبة تموينية يترقبها الجندي بأمل، وهكذا كانت الأموال تنفق عليهم خارجين إلى القتال وأيبين منه ..

وحين كان يرتخي في روحية الجند وازع الانضباط، وتتهيج الأنفس، فتلك بادرة ينشد من خلالها العسكر التغيير الذي يحققون به عادة التوسعة المادية والمكاسب وتحسين الأحوال..

فبالفتن أضحى تاريخ الدولة الاسلامية يصنع حركته ومحطاته. وما نراه اليوم هو من صميم الأمس تماما ، فالجهات والجماعات ، وحتى الأفراد لا يحسب لهم النظام حسابا ، ولا يلتفت إليهم إلا إذا شاغبوا ودمروا وأظهروا قوتهم.

فالحقوق في المجتمع الجزائري باتت تتال ويظفر بها الظافرون على قدر ما يبذونه من وحشية في المطالبة ، أو قل في فرض الرأي.

فالتناظر بين الطبقتين المدنية والعسكرية يومذاك كان قائما من حيث كونهما متطلعين إلى النظام، وكلاهما يحرص على ضرورة استتباب الأمن ، شريطة أن يكفل ذلك الوضع المستتب جاري رزقهم ومكاسبهم.

على أن حال الركود كانت تشح على الناس وتحد من حظوظهم أو تعدمها فكانت الضوائق تحملهم على زعزعة الوضع ، نفاذا إلى

المغنم ، لذا كانت كثيرا ما تتحول أهون الأسباب الى مظاهر شغب وانقلاب، تعلقة لتحصيل الرزق، خاصة من قبل الجند الذين دأبوا على استخلاص حاجتهم المعاشية بركوب القلاقل والفتن، كلما وجدوا إلى ذلك دافعا..

أما طبقة التغيير الصماء المتوحشة، والتي نجد دورها يستفحل كظاهرة فعالة منذ القرن الثالث على الخصوص ، فكانت تتمثل شرقا في القرامطة، تلك الجموع الهجرية (مدينة هجر بالبحرين) التي خرجت على السلطان، واستقطبت إليها سكان الريف وأهل الخصاصة والمحرومين والمهمشين ومن كانوا يحنون الى التغيير الذي ظلت فرق الخوارج والعلوية والباطنية تعد به وتسعى الى تحقيقه عبر العهود..

وكانت تتمثل أيضا في حشود الأعراب وخصوصا القبائل الهلالية، تلك القوة البدوية، الضاربة في الأرض كأسراب الجراد، والتي قوت شوكتها عهود من التنقل الحر ومباشرة أعمال السلب والخروج عن السلطان.

لقد استحال الهلالية ومعها قبائل الأكراد، وأخلاط عرقية أخرى استوعبتها دار الاسلام في المشرق ولم تكفل لها حظا من المدنية، إلى قوة تضاهي قوة السلطان، بل تفوقها من حيث الشراسة والتماسك العضوي ووحدة المستوى المعيشي.

لذا كانت هذه الجموع الضارية ترصد جهودها لكل متمرد على السلطان لقاء الجزاء والإقطاع..

لقد كان السلطان يعجز أحيانا عن الإيفاء لمثل هذه الجموع المتوحشة بالتعويضات والجزاءات، إذ كانت عهده تختص بالجند وهياكل الدولة، فكان من ثمة خيار تلك الجموع أن تسعى في الأرض، فتغالب على رزقها، وتنزعه بالغزو والإجتياحات.

وإذا كانت القرمطية قد انتشرت بالثوب العقيدي المذهبي وجعلت من الآية الكريمة: ونريد أن نمن على الذين استضعفوا، شعارها، فإن الهلالية ستظل وبامتياز، آلة اجتياحية ذات آثار تعدلت بها المعطيات المدنية، والبشرية في الكيان الاقليمي الاسلامي كلية، وخاصة في منطقة المغرب العربي، حيث كان لإطلاقتها هناك من النتائج الجذرية ما سنقف عليه بعد حين.

ويمكننا استقراء الجغرافية السياسية لهذه الدول (الخلاقات) التي كانت تدبر عصرئذ، شؤون دار الاسلام كالاتي:

الخلافة العباسية ⇨ البويهية، القرامطة، حلب، أعراب الهلالية، أكراد...

الخلافة العبيدية ⇨ مصر - الشام - افريقيا.

الخلافة الاموية ⇨ الاندلس - المغرب الأقصى.

الأطراف والأقاصي: خراسان واقليم فارس، وبخارى، وبلاد السند كانت مستقلة، وسيتعرض بعض هذه الأقاليم الى الغزو الأجنبي، وبعضها سيواصل الفتوح..

صيقيلة ⇨ استرجعها النورماد، واخترقوا ثغور المهدية وبجاية الحمادية منذ أواخر القرن الرابع.

لقد كانت فواعل التشكيل الشعبية تتركز خلال هذه المرحلة حول: الديلم - الفرس - العرب - البربر واخلط أخرى تخومية وحشوية لاتفتأ الأسباب تحركها داخل وخارج الحلبة السياسية والاجتماعية لدار الاسلام.

فيما كانت فواعل التشكيل العقيدية تتمحور حول المذهبين: سنة - شيعة بمختلف تفرعاتهما وقراءاتهما.

على أن هذا لا يعني احصاءنا لكل الظواهر التشكيلية التي كانت تتفاعل الواقع الاسلامي خلال هذين القرنين، ولا يعني أيضا أن هذه البنى سواء ما ذكر منها أو لم يذكر، كان يجمعها قانون التزام، على صورة واضحة.. فالتواصل كان أحيانا غير محسوس تعاقبيا ولكنه مع ذلك ثابت.

كما أننا لا نتردد في القول بأن المنحى الإجرائي وحده يجعلنا نسيغ هذا الطرح المتبنيين، لأن الطابع العضوي الملحم لمختلف

التشكيلات كان يميز ذلك الواقع ، وان سببية الفعل ورد الفعل ، ونوعية القوى الضابطة ، ومصدرها، ومراميها ، وشروطها المكانية الزمانية وغيرها.. كانت تشترط ذلك الواقع وتسمه بسمات الممايزة والإختلاف رغم انتماء وقائعه جميعا إلى مناخ وتربة الحضارة الاسلامية في تلك الحقبة.

ظاهرة التحول في المكونات السياسية والإدارية لخريطة العالم الاسلامي خلال القرنين الخامس والسادس هجريين:

ما يمكن تمييزه في حركية الفعل السياسي والاجتماعي التي كانت عليها الخريطة الاسلامية في تلك المرحلة هو تزاوج واقعتي الثبات والدثور في مجريات الأحداث بصورة شبه مسترسلة ، بحيث تلازم المظهران: مظهر الخلافة كمقوم دائم وشرعي، مع ما يرتبط به من كيانات لاحقة به لبث يفرزها تراسل الأحداث من خارج النطاق الجغرافي والسياسي للخلافة أو من داخله، والتي كان يمثلها السلطان المتغلب والمتوسل إلى السدة من خلال لياذه بعتبة الخليفة .. فالبويهية تغطت برداء الخليفة ، والسلجوقية كذلك ، وهكذا كانت الدولة الزمانية وهي صاحبة الشأن في صنع الحياة والأحداث تنكث بالدولة الروحية إذا صح التعبير ، والمتمثلة في الخلافة ، التي أضحت مفهوما ، ومجرد روحية معنوية يملئ الواقع عليها أحوال تكيفها واستجاباتها.

وإلى هذا هناك مظهر الدويلات التي كانت تنشأ نشوءا عرضيا من غير أن تستكمل حدا أدنى من شروط الوجود والكيونة، الأمر الذي كان يجعل جهودها في البقاء تذهب هباء، ولو بعد حين .

فلو تأملنا قليلا التشكيل السياسي الذي اختزلناه في الموضحة السابقة لرأينا الإقتران بين الشرطين متحققا في خلافة بني العباس بالعراق ، كما هو متحقق في الخلافة الفاطمية بمصر أيضا، والحال ذاتها قد ميزت الخلافة الأموية في الأندلس..

فالخلافة العباسية كانت تشهد في أواسط القرن الخامس ظهور الدولة السلجوقية، تلك القوة العسكرية والسياسية التي ألقت بها عوامل الدفع والجذب من قلب آسيا إلى حاضرة بني العباس بغداد (432 هـ) بعد اندحار دولة أخرى كانت تمارس سيادتها في كنف الخلافة العباسية ببغداد هي دولة بني بويه.

وفي مصر نجد العبيديين ،أتباع عبيد الله المهدي المتحولين الى القاهرة ينزحون عن المغرب لتت عزل عنهم فيه، دولة بني زيري البربرية ، إذ انفصل قادة هذه الدولة عن المركز ذلك الانفصال السياسي والمذهبي الذي ولد ظاهرة كيانية ازدواجية من أصل وفرع = الزيرية والحمادية . ولن يلبث الفرع بدوره أن يأخذ ماهية أصلية مستقلة، إذ الارتباط أو التبعية التي أملها الطرفان من بعضهما بعض، آلت الى انفصال واقعي معطن ومتبلور..

لقد تحقق شرط التلازم اذ نجد الانفصال قد حصل أولا في صورة تفكك داخلي أضحت به الدولة الزيرية دولتين ، حيث استقل القائد المحارب بلكين ، ثم حفيده حماد من بعده، عن أبناء عمهما الزيريين بتونس ، ولما كانت ارادة الانفصال قطعية ، تحتم على الحماديين أن يلغوا اعترافهم أو تبعيتهم للخلافة العبيدية الأم، وهو ما عبروا عنه بالشكل السياسي والمذهبي السافر حين حولوا بيعتهم إلى الخلافة العباسية في بغداد..

وفي هذا الحدث يتجلى الترابط الذي يجعل من الخلافة الأم مثابة سياسية تعترف بميلاد الكيانات الناشئة وتمنحها السند الشرعي.

ولا يخفى أن الكسب هنا متبادل ، فالدولة الوليدة تستمد بعض أسباب دوامها ونمائها من روحية الشرع الذي يجسده رمز الخلافة ، والخلافة بدورها تستمر في الحياة والوجود من خلال قيمة هذه الانبثاقات التي تطرق بابها تستمنحها الشرعية.

وقد آل الأمر إلى أن أضحي مجرد تقليد لا يقتضي من الدول كبير حرص على الإيفاء به.

وكانت الخلافة الاموية بالأندلس في هذا العهد عرضة لانبثاقات انقلابية ترهص بمصير تفتيتي اعدامي ظاهر لكيانها السياسي والعقائدي (الأموية).. لكنها كانت مع ذلك تحتضن في بنيتها امارات أو كيانات بربرية تحالفها وتدين لها بالتبعية..

والملاحظ أن هذا التركيب المزدوج الحدية الذي افترضنا أنه كان يعم بنية تلك (الخلافات) ، حيث يتلازم قيام دولة المركزية مع وجود دويلات وكيانات أخرى تتبعها .

على إن نفوذ الخلافة (مظهر الثبات)، ونفوذ دولة السلطان (أو الوزير) (مظهر التغير) المتمركز في الحاضرة، إنما كان يعاني من تقطعات وتمزقات كان نظام الخلافة الهش، الصوري مهيا لها. وهو ما جعل شخص الخليفة يغدو مجرد بيدق، فلا غرابة أن نجد بعض الخلفاء- آخر العهد العباسي- في أسفل السلم الاجتماعي من حيث الفقر والمنزلة.

في حين كان الشأن ، إن كان بقي لدول الانحطاط من شأن ، كان من حظ السلطان ، أو الهيئة المتنفذة.

فالخلافة العباسية أيام القادر مثلا ، وكان سلطانها في يد البويهية شرف الدولة ، كانت أقطاعا يتوزعها متغلبون مستقلون رابطتهم بالخلافة شبه مقطوعة.

فديار بكر والرقعة كانت يومئذ في يد نصر الدولة بن مروان ، وكانت واسط والمعرة لجلال الدولة أخي شرف الدولة، وكانت الرقعة الوسطى ومنها الحاضرة بغداد في يد مشرف الدولة .

و ذات الحال بالقياس إلى الأندلس، إذ تحالفت صنهاجة والعلوية ضد الخليفة الأموي (عام 407 هـ)، وتبليت أحوال الجزيرة، وتعدد أدعاء الخلافة فيها وجمعهم زمن واحد ، حتى " صار الأمر في غاية الاخلوقة والفضيحة ، أربعة كلهم يسمى أمير المؤمنين ، في رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخاً"⁵

أما الشام فقد تصارع عليها عساكر الخلافتين: العباسية والعبيدية، وكانت عرضة لنفتيات محلية وخارجية (افرنجية) وستعرف بعض مدنها وثغورها استقلالية غير قارة ولا دائمة..

أما حلب الحمدانية فقد كانت أهم من الحاضرة بغداد ذاتها ، بالقياس الى الحرية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي عرفتها نتيجة بعض النجاحات العسكرية التي حققتها على الجبهة الرومية ، وما استلحق ذلك من انتعاش أدبي وفكري كان من ثماره تقريبهم لرجال الفكر والأدب والفنون المسلمين (المتنبي ، الفارابي ، أبو فراس)

الخلافة.. الشرط الفاعل المنفع:

تذرعت المغالبات العسكرية والسياسية الإسلامية منذ مقتل الخليفة عثمان لتحقيق مقاصدها ومشروعيتها بالعامل الديني ، فالأموية سوغت وجودها بالنص وبالإجتهد الذي استقرئ به مضمون ذلك

⁵ - ابن الأثير. الكامل

النص (قرآن -حديث).. ومثلها فعلت العباسية ، وأيضاً العبيدية التي كانت تبنت مبدأ المهودية الغيبي، لتكريس دعوتها.

لقد رشحت الأموية نفسها نظاماً شرعياً تتجاوز به الأمة واقع الفتنة وتحمي به الكيان من مخاطر الثقاني التي داهمتها في مسلسل الصراع على الخلافة الذي كان قطباه المتنازلان علي ومعاوية- رضي الله عنهما- ومن ورائهما كانت تتشكل عصبية ونزعات سوف لا تلبث أن تتمخض عنها الأحداث ذلك الصراع..

أما العباسية فقد انطلقت ملوحة بتبشير العودة إلى الحق والإنصاف لأهل الحق :آل الرسول (ص)،ومن خلالهم كل مظلوم نال منه السلطان الأموي الدينوي في ماله أوفي دينه..

وتوسلت المهودية من جهتها بمبدأ الأحقية في الملك الذي اقتضاه الله لآل البيت، مضافاً إلى ذلك المبدأ تسخير الإيمان الذي تقوم عليه فكرة المهودية وهو ظهور صاحب الزمن ومرسي دعامة العدل الإلهي..

وكانت الجماهير المسلمة ترى في مرفق الخلافة رابطة روحية ورمزية تصلهم بالنبوة. من هنا أنزلوا مؤسسة الخلافة والخليفة منزلة التقديس والتعظيم ، وجعلوا الامتثال لسلطانه من الشريعة.

لقد كانت الخلافة- بما تتحلى به رمزياتها في الشعور الجمعي من قيمة قداسية تصلها بالماضي الديني- هي الإطار الأسمى الذي يجسد المرجعية الروحية والمدنية التي تهفو إليها أفئدة المسلمين وتستلهم أسباب الرضى بالواقع والأمل في رحمة الغيب..

من هنا كانت مكانتها في الضمير الاسلامي جلية، وهو ما أعطاه ذلك السمو الذي كان أثره في النفوس يكفل للناس ضربا من الطمأنينة الروحية والعزاء الذي يتيح للحياة أن تمضي مهما كانت طبيعة تردياتها.

هكذا إذن تأصلت الأواصر الروحية والأدبية بين المسلمين وبين مفهوم الخلافة..

وطبيعي، والحال هاته أن تسعى الخلافة من خلال أطرها إلى أن تلتزم بأداء هذا الدور التكفلي ولو على شكل رمزي..

إن تعدد ظاهرة الاستخلافات (أو الخلافة) في تاريخ المسلمين يعكس، في جملة ما يعكس، هذا التجدد النفسي والنزوعي الذي يلزم المسلمين كلما تردت أوضاعهم وتشتت آمالهم في تحقيق الكرامة والعدل والسكينة.

ولما كانت فكرة الخلافة تعد من المبادئ المرتبطة بالعقيدة والشرع، فقد رأينا المنطلقات أو الدعوات التي سوغت لمختلف نماذج

الخلافة الاسلامية الأربعة: الراشدية، الأموية، العباسية، والعبيدية تتحصر جميعا في إطار الدين، إذ العقيدة هي التي ظلت تبرر ظهور تلك (الخلافات) إلى الوجود ضمن ظروف تاريخية محددة واعتراكات مرحلية خاصة، الأمر الذي أوصد الباب في وجه مزيد من الإدعاءات والمزاعم على كثرتها، وسكن غلواء بعض الأفراد في أكثر من عصر ومصر ادعوا النبوة تحقيقا للمطمح السياسي .

وإذا كان الإطار المكاني الإقليمي قد ساهم في جعل العباسية تنفي الأموية وتقصيهما من موقع المركزية إلى قصي من الأرض هو الأندلس، فإن إنبثاق العبيدية بين فضاء تترامى عبره الخلافتان العباسية والأندلسية ليدل على القابلية الروحية والزمينية التي تميز الأمة ، والتي جعلتها لا تتردد في الاستجابة وودعم الجهات المتوسلة إلى أغراضها بادعاءات إمامية.

فالأمة بذلك إنما كانت تعرب في كل مرة عن عاطفة الدين المتهيجة في أعماقها على الدوام، وكانت تتطلع إلى تحقيق حلم الانبعاث الكامن في الصدور ، ذلك الحلم الذي غدا يتجاوب حتى مع التلويحات المضللة .

وإنه لأمر طبيعي أن يكون هذا التعدد في المراكز عامل إضعاف لقوى تلك (الخلافات) لذا رأينا العباسية تعرف الإنحسار والضمور بعد مضي قرن فقط أو نحوه على قيامها.

لقد أخذت الإنشطار الذاتية تضر بقوتها ووحدها ، وأضحت الأطراف التي استحال دولا، تمسك عنها المدود والأموال ، ولما فشلت المركزية العباسية في تحقيق التماسك ورأب الصدعات وضعت حرماتها ورمزيتها في المزاد ، وبات التغالب بين القوى الفارسية والتركية خاصة يستمد قوته ووجهته من الكفالة الروحية التي تضيفها عليه علاقة المتغلب بالخليفة من شرعية .

لقد باتت شارة الشرعية بيد الخليفة ، وكان طقس إلباس الإلباس الباردة وتقليد الراية، هو الصورة التي يتم بها اعتماد السلطان الشرعي . من هنا بات قصر الخليفة مقصد كل متغلب من أجل أن يظفر بشارة التولية على يديه وفي حضرته. وما كان للخليفة أن يمنع مباركته عن أي متغلب ، ذلأن الخليفة كان قد جرد من أي سلاح مادي أو عصبية قاهرة.

القرن الخامس.. قرن إتلاف مادي وأدبي للحضارة الإسلامية:

لا نماري في القول بأن القرن الخامس الهجري ، قد جسد دورة النضج الحضاري الذي تحقق للأمة الإسلامية في مسيرتها العالمية منذ البعثة المحمدية.

فلقد أثمرت جهود الأمة وأعطت طيب النتائج على مختلف الأصعدة ، وتبدخت أوساط اجتماعية عريضة ، وتهيأت حركة عالمية غدت فيها بلاد الإسلام مركز الإستقطاب ، وأضحت المبتدعات

تسوق إليها من كل صوب، وبات العقل الإسلامي يمنح الإعتمادات الفكرية ، بعد أن أحرز منزلة علمية مركزية أهله لأن يكون مرجع الاعتماد في مجال المعرفة الإنسانية ..

وعلى الصعيد المدني والاجتماعي رفلت الأوساط الحضارية في الرخاء، وترقى الذوق العام، وتنافست الأقاليم والممالك في المبتكرات، وشملت رعاية الإنسان الطبيعة الجامدة نفسها، واهتم بالإيكولوجية، وكان حظ أهل الأندلس في هذا الشأن بارزا ، لقد تألق الذوق عندهم في الحقل الإبتكاري والاقتنائي، وأغنوا ما كان يصلهم من الشرق ومن أوروبا بتحسينات تعكس طابع قريحتهم، مضيفين إليه ما كان التنافس يتيح لهم من جمالية وتقنية .

وكانت العبيدية المرحلة التي أخذت فيها مصر بعدها العالمي المتكامل ، من حيث تألقها في تشكيل واجهة حضارية قائمة على نزعة التميز والظهور.

لقد استوعب العبيديون منجزات الطولونية والأخشيدية وأصلوها بما حملوا إليها من تقنيات بربرية وذوق أندلسي طبع النموذج الحضاري المصري بروحه الحية، الأمر الذي أعطاها ذلك البعد المخصوص الذي لازالت شواهد المعمارية والفنية تعكسه الى اليوم..

أما الحاضرة بغداد ، فبالرغم من تدد كثير من الانجازات المدنية والمرقية بها في ذلك العصر، إلا أننا نعد ما توفر لها في مضمار المدنية والفنون نصيبا شامخا، وعلى غاية من الكمال.

لقد تأتي لها أن تبلغ ما بلغته في ما أصلته من مدنية وضعها السياسي والجغرافي والروحي ، باعتبارها المركزية الرمزية الأم للمسلمين ، فهي حاضرة المسلمين الأولى ومقر السلطان السني فضلا عن تميز تاريخها ومكانتها المحورية الاستقطابية العالمية.

وهو ما جعلها محطا لأصحاب القرائح والعقريات من شتى أرجاء العالم الاسلامي ومن خارجه ، فحيويتها السياسية التي ظلت ثابتة كانت تجعل منها موطننا منشودا يهفو إليه كل متغلب عسكري وكل طامح لظهور سياسي أو اقتصادي أو أدبي أو علمي أو ديني.

وسنرى كيف أن الفلسفات والمذاهبات الثقافية كانت تجد منطلقها نحو العالمية في العراق..

فالإكتمال الحضاري والإستواء المرفقي قد عرف في القرن الخامس سقفه الذي لم يعد يتوقع له إلا أن يعيش العد العكسي..

حقا لقد تدهورت أحوال بغداد قبل هذا القرن وراحت الإنكاسات السياسية والعسكرية تضربها وتوقف فيها دينامية النمو والإستبحار، لكن تلك الإنكاسات كانت لا تعطل الحياة ، إذ آلية

النهوض وتجاوز العثار كانت قد استحكمت في الإنسان البغدادي ، وظلت تحذوه الى أن يبدي هذا الإصرار الفذ على البقاء . وأن بيانية التطور الحضاري لتسجل في عصر المأمون ، قمة صعودها ، من حيث رسوخ وسائل الانجاز والإبتكار واتساع أرضية التنفيذ العلمي والتمثل المعرفي، لكن تلك البيانية وإن لم يقدر لها أن تمضي في صعود مطرد وبذات الوثيرة التي كانت لها على عهدي الرشيد والمأمون ، إلا أنها لم تنتكس إلى وراء ، ولم تتراجع نحو الخمول ، وإن عراها التذبذب في مراحل عدة ، إذ كان لها في مدود التجدد والتجديد التي كانت تصل إليها من الأطراف، مادة ثبات واندفاع حفظ لها المضي وضمن لها ذلك الحد الذي غدت به حتى في مراحل التردّي والتقهقر، تواصل العطاء ولو بمحدودية.

لقد كانت السقطات تغفر الوجه ، وتشوه الإهاب، ولكنها لم تستطع أن تقضي على الروح التي صنعت نموذجها الحضاري، وأصرت على البقاء رغم فقدانها كثيرا من شروط القوة.

على أننا لا نقول أن سن النضج المدني هو سن الإستقرار والثبات دائما ، بل لابد من التأكيد أن النضج هو مرحلة التناقص التي تبدأ غير محسوسة تقريبا ثم لا تلبث أعراضها أن تعرو الكيان متى كان الزاد نافدا ومفتقدا لامكانية تجده .

وبالقياس إلى الحضارة الإسلامية يبدو لنا أن عصر الفتوة والعنفوان قد تمثل في القرن الثالث ، أما ماتلاه من القرون فإن ثمة

العطاء الحضاري الناجز والمحقق وحدها هي التي لبثت تمد الجسم الإسلامي وتجعله يغدو متماسكا.

وإذا وقفنا مثلا على مرفق السلطة العليا للدولة ، والتي كان يجسدها شخص الخليفة بما يرمز له من قيم، فإننا سنجد قد تألق في عصر الرشيد ، حيث تأتي للخليفة يومئذ من أسباب التمكن والرجوعية ما سوغ له أن يقول ذات يوم، وقد مرت به سحابة حسب الرواية : طوفي ما تطوفين فإن ريعك لامحالة سينتهي إلي.

إن هذا التمكن المادي والمعنوي الذي كان يستشعره الخليفة في قوته ومركزه سوف يتضاعل بتدخل فواعل التأثير والتحكم التي اخترقت بها قوى الصراع والتفتت حرمة الخلافة، إذ أصبح النفوذ يمارس على شخص الخليفة بصورة إذلالية إحيانا، وغدت الآلة العسكرية بطابعها العرقي الشعبي تختزل وظيفة الخليفة في مراسيم شكلية متناقضة مع الزمن ، حتى انتهت بأن جعلته ينصاع مقهورا لإرادتها.

لقد بات العسكر ينصبون الخلفاء عنوة ويعقدون لهم البيعة ، لا يكلفهم ذلك كبير عنت . فحين توفي المعتصم مثلا نجد الجند التركي يجتمع ويتدبر السبيل الذي يستبقي به الخلافة في نسل المعتصم " إذ كرهوا أن يتولى الخلافة أحد من ولد المتوكل لئلا يغتالهم، وأجمعوا

على أحمد بن محمد بن المعتصم، وقالوا: لا تخرج الخلافة من ولد مولانا المعتصم"⁶.

وقد فعلوا ذات الفعل حين توليتهم المعتصم نفسه..

وقد نجدهم يقحمون للمنصب من لا يتوفر فيه حتى شرط التقديم، كما صنعوا حين نصبوا بعض الخلفاء .

ولقد تصدرت المؤسسة العسكرية الحياة السياسية ، وأدارت الحياة من خلال هذا النفوذ الذي ألغت به دور الخليفة.. وحملتهم المصلحة المادية الفياضية وحب التسلط والتنفذ في الشؤون العامة ، على أن لا يترددوا في إزهاق أرواح بعض الخلفاء كلما رأوا في ذلك سبيلا لضمان سلطانهم، كما حدث للمعتز مثلا حين صفي على أيدي جنده ، إذ أعدم بحال من الإذلال رهيبة ، استخلاصا للمال منه

..ومن قبله نكلت العسكرية بالأمين وبالمتوكل ، وغيرهم كثير..

لقد كانت عادة سمل العينين ، وهي من أعراف العقاب الوحشي الروماني ، نكالا عسكريا لحق بعدة خلفاء..

ولعل مفهوم لفظ الإنحطاط، يجد دلالاته في القيمة المتسفلة التي بات شخص الخليفة يمثلها حيال طغيان العسكر وهمجيتهم .

⁶ ابن الأثير. الكامل.

وإنها لحال معبرة تلك التي عرفت بها منزلة الخلافة ، حين أضحي الخليفة يخرج متلقيا قائدا متغلبا، تسوقه الى حاضرة الدولة عصبية عسكرية لن يكون للخليفة عليها يد ، وإنما هي دوامة التقلبات المعقدة تعلو بقاءه ومن ورائه عسكره ، وتسفل بقاءه آخر مع عسكره ، الأمر الذي انعكس على مجرى التاريخ ذاته ، إذ غدت لونية العهود لونية عسكرية، المنزع العصبي يسندها، وهو ما أهدر مقام الخليفة ، وحصر دوره في بعد رمزي كان الأساس الانقلابي التغالبي نفسه يقتضي وجوده.

إذ لا سكينه تؤمل لنظام ركب الى غايته السياسية مركب العنف والاعتساف ، لم يعد يتذرع الى بسط سيادته بالوازع الشرعي والمرجعي الذي يستمد شكليا من الخليفة.

لقد كانت فواعل الحركة التاريخية آنذاك مركبة ، قد أخذ العامل العسكري فيها صبغة المرجوعية ، وكانت المأساة أن أضحت العسكرية مطلقة اليدين والرجلين لا تضبطها الأخلاقيات ولا الأعراف. لذا طغى على التفاصيل التاريخية وجه الدم والافتراس والضراوة الإنسانية حين توججها نار التسفل والسقوط .

لقد سملت عينا الخليفة المتقي..وعاش بعض من الخلفاء الفاقة الحق.وبيعت أمتعتهم ، واحتلت دورهم .

لذا سننعتف بالحديث قليلا عن أحوال ذلك الاعصر -القرن الخامس- لنعاين عن كثب واقع الخلافة كما عرفته الحواضر الثلاثة: بغداد ، والقاهرة ، وقرطبة.. قال ابن الأثير تحت عنوان : ذكر حال الخليفة والسلطنة ببغداد ، مايلي:

"في هذه السنة (أي 426) انحل أمر الخلافة والسلطنة ببغداد حتى أن بعض الجند خرجوا الى قرية يحيى فلقبهم أكراد فأخذوا دوابهم ، فعادوا الى قراح الخليفة القائم بأمر الله، فنهبوا شيئا من ثمرته..فسمع الخليفة الحال فعظم عليه ولم يقدر جلال الدولة على أخذ أولئك الأكراد لعجزه ووهنه ، واجتهد في تسليم الجند الى نائب الخليفة فلم يمكنه ذلك فتقدم الخليفة الى القضاة بترك القضاء والامتناع عنه ، وإلى الشهود بترك الشهادة ، وإلى الفقهاء بترك الفتوى ، فلما رأى جلال الدولة ذلك سأل أولئك الأجناد ليجيبوه إلى أن يحملهم إلى ديوان الخلافة، ففعلوا، فلما وصلوا إلى دار الخلافة اطلقوا، وعظم أمر العيارين، وضاروا يأخذون الأموال ليلا ونهارا ولا مانع لهم ، لأن الجند يحمونهم على السلطان ونوابه والسلطان عاجز عن قهرهم، وانتشرت العرب في البلاد فنهبوا النواحي وقطعوا الطريق، وبلغوا الى أطراف بغداد حتى وصلوا إلى جامع المنصور، وأخذوا ثياب النساء في المقابر"⁷

لقد سقنا هذا النص رغم طوله، وفي نيتنا اختزال أهم مؤشرات التحلل الذي فشا في أوضاع الخلافة، باعتبار الخلافة مجتمعا ومرافق

وسلطانا، محاولين من خلال ذلك تصور فواعل التدمير المشتركة بين الخلافات القائمة في ذلك الوقت، واقفين عند النتائج المترتبة عنها في مجال الثقافة والفكر من جهة، والتأثيرات التي كانت لذلك الوضع في مضمار الحركة التاريخية والحضارية للأمة من جهة أخرى..

ان حديث المؤرخ ينصب هنا على الواقع البغدادي العباسي في حدود حضارية مكانية زمانية معينة، يمكن التأشير لها كالتالي:

المجال الحضاري ⇨ الخلافة العباسية.

الفضاء الإقليمي ⇨ بغداد.

لحد الزماني ⇨ الربع الأول من القرن الخامس.

إن العناصر الفاعلة في البنية كما يبينها هذا المسرد اثنتان: الخلافة والسلطنة، وهو ما يؤكد إقرارنا السابق بازدواجية المرفق السلطوي، وبثنائيته المكونة من الدائم الصوري ⇨ الخلافة، والمتغير الضروري ⇨ السلطنة.

لقد استخدم المؤرخ في وصف حال الخلافة فعل ⇨ انحل، وإن من توليدات الانحلال: التفكك، التمزق، التميع، الزوال.. إلخ.

فالتوظيف اللغوي صادر هنا عن وعي انتقائي، تسليمي، يأس، أدرك المؤرخ من خلاله حقيقة المآل الذي آلت إليه الخلافة آنذاك..

فالمؤرخ من خلال الصورة الخيرية التي استجمعها في هذا السياق قد عبر عن مشاعر استقضع بها المصير المأساوي والوضع الغوغائي الذي كان يمضي بالخلافة نحو الفناء، إذ أن التردّي بلغ حد اللامعقولية..

لقد ساق المؤرخ- لكي يسجل هذا التحول المؤذي الذي عرفه مرفق الخلافة وشخص الخليفة ذاته- حادثة على بساطتها، إلا أنها ترجمت فعلا دلائل الانهيار الذي شمل بنية الدولة واستهدفت بالدرجة الأولى مرافقها الرمزية وعلى رأسها شخص الخليفة. وأصابها في العمق حين أضحت عسكريتها تتصرف بروح التمرد والعصيان والنقمة، ولم تعد للخليفة ولا للمقدسات عندها أية حرمة..

إن هذه الحادثة المتمثلة في مسلك غير إنضباطي لمجموعة من العسكر لم تكن شاذة، بل كانت القاعدة التي باتت تحكم علاقة العسكر بالمشهد المدني عموما من حولهم.

فالإرتداد بالنقمة العسكرية قد استهدف الخليفة رمز السيادة الشرعية، وفي ذلك دليل على ما بات عليه هذا الشأن الروحي من هوان في نظر العسكر أيامئذ..

إن تدخل السلطة الزمنية قد عجز هو أيضا عن تحقيق الانضباط. وكان يومئذ جلال الدولة (البويهية) هو السلطان الزمني ببغداد..

كما أن استخدام الخليفة لنفوذه الأدبي ، من خلال كفه الشهود والقضاة والفقهاء ، أي الجهاز الإداري للمؤسسة الشرعية ، عن العمل لم يحقق نتيجة تعيد الأمر إلى نصابه ، في تلك الحادثة على الأقل .

إذ أن رد فعل الخليفة في هذه الحادثة كان لا يتجانس من حيث الردع مع الفعل.

من جهة أخرى يفيد السياق أن اجراء تعطيل نشاط تلك المؤسسات الشرعية الذي لجأ إلى اتخاذه الخليفة كان اجراء غير مجدي ، والسبب هو عدم ترابط التأثير بين هياكل الدولة ، لغياب المرجعية المركزية اللاحمة بين تلك الهياكل ، الأمر الذي أعطى لوضع التفكك تراتبا كانت الصدارة المطلقة فيه لمن يملك السلاح ، أي للجندي .

فحتى السلطان الزمني نفسه ، والذي كان يمثله قائد العسكر ، كان يعيش العجز ، بعدم تحكمه في القوة النظامية(?) العسكر فحاله من هذه الناحية يتشاكل مع حال الخليفة على نحو ما..

لكن الأدهى أن يكون العجز هاهنا عاما يشمل أيضا قطاع العسكر كقوة ضبط وتنفيذ وحسم، فقد أخبرنا النص أنهم عجزوا في تلك الحادثة عن قهر مجموعة الأكراد ، أي اللصوص..

لقد جعلنا المؤرخ من خلال سرد هذه الحادثة نعيش ولو بشكل كاريكاتوري ، حادثة تغالب ، كانت شاهدا من شواهد الفوضى وانحلال المجتمع عامة من النظام ، فالمشهد الصراعى أضحى يجمع إلى العسكرية وقادة العسكر ، والقيمين على الشؤون الشرعية : قضاة فقهاء عدول ، اللصوص ، إذ صارت اللصوصية وظيفة لها قطاعها ونقابتها ونظامها وريعها ، وسنراها تنهض بدور أسهم في تعميق درجة التردى ، وذلك كله ناتج عن انعدام المرجعية القوية ، لأن أداة الضبط والقهر : أي العسكرية كانت قد تردت هي أيضا في الوحل.

لقد خرج متغلبا في تلك الواقعة طائفة اللصوص ، أو الخارجين عن القانون . أي المافيا ، وما أشبه اليوم بالبارحة يا زمان. لذا رأينا أنه حتى بعدما أفلح السلطان في ترضية الخليفة، بحمل العسكر المذنبين في حقه إلى المثل أمامه ، فإن الأمن لم يستتب ، والنظام لم ينحصر ، ولكن الطرف المتغلب: العيارون - ومعهم فلول العرب البدو، قد انتهوا إلى بغداد، ووصلوا إلى جامع المنصور .

ولا شك أن وصولهم إلى تلك النقطة : جامع المنصور وتسجيل المؤرخ لذلك إنما لكي يبرز الوضع التدنيسي الشامل الذي طم وعم . فدلالة المكان التي يُوْشِر لها لفظ المسجد تعكس هنا فداحة مزدوجة، إذ شمل فعل التعدي المجال الدنيوي (بغداد) ، والدنيي (الجامع) معا..

بل لقد تجاوز وضع الدناسة ذاك الحد ، لينتهي الى حال من الوحشية المقيتة ، إذ أخذوا ثياب النساء في المقابر كما يخبرنا المؤرخ..

انها حادثة تاريخية تكشف مستوى الاستخذاء والهوان الذي تردت فيه الدولة أو الخلافة في بغداد ، وإنها لحال تبرز حقا المصير الذي سوف تعرفه البويهية ذاتها ، باعتبارها صاحبة السلطان الزمني في ذلك العصر، اذ سوف لن يمضي على دولتهم سنوات معدودات من تاريخ وقوع هذه الحادثة ، حتى تسقط لتحل محلها السلجوقية ..

و في وسعنا أن نحصي مزيدا من الأحوال التي عاشها كثير من الخلفاء في هذا القرن، استحضارا لصورة الإنسحاق الذي كانت عليه دولة الخلافة ، لا في بغداد وحدها، ولكن في مصر والأندلس أيضا..

فإذا ما واصلنا استعراض أوضاع خلفاء بني العباس ، فإننا سنجد أمر خلعهم وتولييتهم قد خرج تماما عن إطاره العائلي العرفي والمدني ، ليضحى من شأن العسكر وحدهم كما قررنا سلفا..

لقد رأينا الخليفة المطيع مثلا، وكان قد أصابه فالج وظل "يستر ذلك" يضطر عام (363) الى أن يخلع نفسه بعد أن انكشف أمره لوزيره سبكتكين ، ويسلم الخلافة الى ولده الطائع لله..

وإذا كان الحدث يعد إيجابيا ، من حيث هو إجراء نظامي وشرعي تخرج به السلطة من يد إلى يد ، بحكم الضرورة الحيوية (الصحة) الا أن سلبيته تكمن في أن الجهة المقررة له كان (الوزير العسكري) وليس الواجهة السياسية والشرعية التي تدال بها سلطة الخلافة والممثلة في الأسرة الحاكمة والمجتمع المدني كما نسميهم بلغتنا السياسية المعاصرة..

أما أن يستبد السلطان العسكري بأخذ القرار وتنفيذه من غير الرجوع إلى المشورة المدنية أو حتى العائلية، أو من غير مراجعة من كانوا يعرفون في الإصطلاح القديم بأهل الحل والعقد ، والذي يمثلته جماعة الفقهاء ورجال القضاء وأعيان البلد والطبقة المتتورة وبقية المرجعيات التي تقدمها عدالتها الدينية وسمعتها الأخلاقية.. فلذلك ما كان يعزز من النزعة الانقلابية ، ويقوي من استبداد العسكر، وينيط ما يمكن أن يسمى بالسيادة العليا للأمة بإرادتهم ، وهو ما أضعف من مركز الخليفة ، وانتقص من اعتباره ، وهوى بسلطته الى حد رمزي سلبي الأثر والفاعلية..

لقد كشفت علاقة الطائع لله (ابن المطيع) بالمؤسسة العسكرية، في بعض الأطوار هذا الهوان الذي ألحقه العسكر بشخص الخليفة ، فلقد قلت الأموال عند وزيره بهاء الدولة، فسعى الوزير لاستخلاص المال من بعض رجال دولته قهرا ، لكنه لم يفجح، فالتفت الى الخليفة الطائع وهيا له مقلبا، " إذ أرسل إليه وسأله الإذن في الحضور إليه ليجدد له العهد ..فأذن له الطائع، فلما جلس بحضورته دخل بعض

الدليم كأنه يريد أن يقبل يد الخليفة، فجذبه فانزله عن سريره والخليفة يقول إنا لله وإنا اليه راجعون ، وهو يستغيث ولا يلتفت إليه ، وأخذ ما في دار الخليفة من الذخائر ومشوا به في الحال ، ونهب الناس بعضهم بعضا⁸

وإنه لغير مجد التعقيب على ما يصوره هذا الموقف من خزي لحق الخليفة على يد رجال السلطان بشكل علني وسافل.

لقد تجاوزت المأساة هنا حال الضراوة التي كان الإنقلابيون يصفون بها أعداءهم، إلى وضع أخذت فيه العلاقة طابع الغدر والمكيدة ، وكل ذلك يترجم ذهنية العسكريين في تلك المرحلة ، إذ أن المناورة كما حيك لا تصور إلا الطابع السوقي والخساسة التي باتت تسم الجند وتجردهم مما عرفوا به من نجدة وشهامة ونبل، فهمة المنقضين على الخليفة انحطت إلى درجة أنها توسلت إلى قصدها الغادر بالإحتيال الجبان.

لقد تلاقى أخلاق الجند في هذا الحادث بأخلاقيات العيارين والصوص الذين ظهر أمرهم في تلك المرحلة وشكل مركزا من مراكز القوى.

فأخلاق تلك المرحلة قد جنحت إلى ذلك المنحى اللصوصي. مما يدل على أنه حتى المثل والمعايير تتبع منطق الغلبة ، فالناس على

دين ملوكهم ، وإذا كان الملك لصا أو عيارا أو مافيا ، فإن أخلاق الأمة ومحامدها لن تخرج حتما عن اطار أخلاق اللصوصية .

الشريف الرضي يتأسى على الوضع العام للنظام والسلطان.

لقد بات الهم المعاشي ، والحاجي ، أو ما نسميه الوازع المادي الإرتزاقى ، أساس الفعل المحرك للجند، وأضحت الدولة بيد جند غوغائي لم يعد الفيء واحده بكاف لإعالتهم، لازدياد تكاليفهم وتماديهم في الاستهلاك ، لذا أضحوا يعولون على التظاهر وعلى المطالبات الدورية القائمة على الإنقلاب والإغتيال..

ويذكر المؤرخ عند إيراد هذا الخبر، أن الشريف الرضي كان من جملة المنهوبين في تلك الواقعة ، الأمر الذي حمله على نظم أبيات يتأسى فيها لحال الخليفة، قال فيها:

من بعد ما كان رب الملك مبتسما الي أدنوه في النجوى
ويدنيني
أمسيت أرحم من قد كنت أغبطه لقد تقارب بين العز
والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكني يا قرب ما عاد بالضراء
بيكني
هيهات أغتر بالسلطان ثانية قد ضل ولاج أبواب
السلطين..

ال خليفة يبيع متاعه لدعم مجهود الجهاد والوزير يحول المال إلى متعته.

لقد بلغ من ابتزاز العسكر للخليفة حدا غدت به حتى قيم مقدسة مثل الجهاد، موضوع استهتار واستثمار مادي خسيس من ذلك ما حدث عام 361هـ، حين استنفر أهل الشام الناس في بغداد للجهاد ، فكان أن تجمعت العامة ، فأظهروا العصية المذهبية الزائدة، وتحزب الناس، وظهر العيارون، فنهبت الأموال، وقتل الرجال وأحرقت الدور.. ثم ان بختيار (السلطان) أنفذ إلى المطيع يطلب منه مالا يخرج في الغزاة ، فقال المطيع:

إن الغزاة والنفقة عليها وغيرها من مصالح المسلمين تلزمني إذا كانت الدنيا في يدي وتجي إلي الأموال، وأما إذا كانت حالي هذه فلا يلزمني شيء من ذلك ، وإنما يلزم من البلاد في يده ، وليس لي إلا الخطبة، فإن شئتم أعتزل فعلت ، وترددت الرسائل بينهما حتى بلغوا إلى التهديد ، فبذل المطيع أربعمئة ألف درهم، فاحتاج إلى بيع ثيابه وانقاص داره وغير ذلك، وشاع بين الناس من العراقيين وحجاج خراسان وغيرهم أن الخليفة قد صودر، فلما قبض بختيار المال صرفه في مصالحه وبطل حديث الغزاة⁹ .

قالوا قصة تصور العلاقة التي كان عليها الخليفة مع سلطان الدولة، علاقة تخضيع ، كما تصور صلات الناس في مجتمع الخلافة العباسية، تلك الصلات المذهبية التعصبية المهيأة للانفجار حتى في ظرف جهادي حماسي كهذا .

كما تكشف عن ضعف عقيدة السلطان أو موتها على الأصح، فقد كان همه من تحصيل المال تغطيه حاجاته، وليس النفقة على المقصد الجهادي الذي حرك الناس

تاريخية المسلمين أوشكت على الانقطاع لولا ظهور جارية حامل.

وإذا كان الإفصاح الرمزي يشخص الحقيقة أحيانا بالإيعاز بدراميتها، فإن افصاح خبر كذلك الذي أورده المؤرخون عن وشوك انقطاع نسل الخليفة وزوال الخلافة العباسية في عهد القائم، لو لم يهتد الناس إلى جارية كانت حاملا من ابن الخليفة المتوفي، إن هذا الخبر ليعبر عن الحال التي أوشكت فيها تاريخية المسلمين نفسها على الانقطاع.

إن بيعة المقتدي بما اكتنفها من جو مريب ، ومن مخاوف الانقطاع، وما يخشى أن سيترتب عن وضع العقم (المادي والمعنوي) الذي كان هذا الخليفة عليه، كانت تعطي لنبا وجود الجارية الحامل من ولد الخليفة كل التبرير لجعله مناسبة يعرب فيها الناس عن سعادتهم ببقاء الخلافة واستمرار حبلى في الورثة من

الأسرة العباسية ، بكل ما لذلك الاستمرار من ايعازات البقاء والصمود والمقاومة.

يقول ابن الأثير:

" لم يكن للقائم ذكر سواه (أي المقتدي) .. فان الذخيرة ابا العباس محمد بن القائم توفي أيام أبيه، ولم يكن له غيره، فأيقن الناس بانقراض نسله وانتقال الخلافة، من البيت القادري الى غيره، ولم يشكوا في إختلال الأحوال بعد القائم، لأن من عدا البيت القادري كانوا يخالطون العامة في البلد، ويجرون مجرى السوق ، فلو اضطر الناس الى خلافة أحدهم لم يكن له ذلك القبول ولا تلك الهيبة ، فقدّر الله تعالى أن الذخيرة أبا العباس كان له جارية اسمها ارجوان، وكان يلم بها ، فلما توفي ورأت ما نال القائم من المصيبة ، واستعظامه من انقراض عقبه، ذكرت أنها حامل ، فتعلقت النفوس بذلك ، فولدت بعد موت سيدها بستة أشهر، المقتدي، فأشد فرح القائم وعظم سروره، وبالح في الإشفاق عليه، والمحبة له..".

واذا كان المغزى من سرد هذا النص هو التدليل على حيوية مرفق الخلافة وما كان له من شأن رغم كل الدواهي التي دهمته ، وما كان يتهدد بقاءها واستمرارها من مخاطر، فإن السياق يكشف لنا أيضا عن تلك العلاقة العاطفية التي ظلت تشد الناس إلى موضوع رمزياتهم، رغم وضع التردّي والانحلال الذي اكتنف حياتهم، وهدر كثيرا من قيمها وتوازاناتها..

لقد عز في هذا العهد إيجاد ولي العهد المستخلف الجدير بالنهوض بكفالة الأمة روحيا، إذ العقم البيولوجي أوشك أن يجعل نهاية لنظام الخلافة في استرساله السلالي النبيل .

وإن استشرى التردّي يومئذ لتؤكد تلك الحال التي كانت تعيشها العترة العباسية الحاكمة ذاتها، بوصفها الأرومة التي جسدت بتاريخها السياسي والاجتماعي الموثق الروحي ومروزيته : الخلافة.

لقد فقدت فروع سلالية كثيرة من تلك الأسرة الحاكمة خصيصة النبيل الاجتماعي التي نجدها تميز عادة أهل الشأن والوجاهة من الناس، وهو ما يعكس خمول البيت العباسي نفسه ، وهو حال يندرج ضمن منطق السيرورة التي تحكم الأشياء والوقائع¹⁰.

لقد قامت ميزة التراتب يومئذ على سلم مقلوب ،تدنت فيه منزلة الخليفة وآله ، وارتفعت على حسابها منزلة السلطان المتغلب بوصفه قائدا للعسكر.. لكن حتى هذا الإرتفاع الذي زعمناه لمنزلة السلطان أو

¹⁰ ولا غرابة أن نرى نحن منذ أيام مثلا بعض قصور الأمير عبد القادر الموجودة في دمشق يشملها القدم والتهدم . ولم يمض على عزاها أكثر من قرن . فالرثاة تلحق السلالات كما تلحق الموروثات المادية سواء بسواء ، اللهم إلا إذا وجدت حظها ومن يتعهدا ، لسبب من الأسباب.

الوزير ، إنما كان هشا، عرضة للإختراقات والتجاوزات كما رأينا منذ قليل..

وإذا كان الهوان قد لحق بالخلافة كما أسلفنا منذ عهد المتوكل تقريبا ، فإن هناك بعضا من الخلفاء قد عكس مرورهم على كرسي الخلافة إرادة كبيرة في النهوض بالأمر وإعادة الفاعلية إلى وظيفة الخليفة ، نذكر من هؤلاء المعتضد مثلا..

وفي ما يخص القرن الخامس ، فقد وجدنا شخصية القادر ، على ما ساد عهده من ترديات، تحوز إمتداح المؤرخين، فقد أشار ابن الاثير الى المساعي التي بذلها هذا الخليفة من أجل أن يعود للخلافة دورها في الحياة السياسية والاجتماعية العباسية رغم ما كان يتلاطم تلك الحياة من صراعات الطوائف والأقوام.. وخاصة على يد كل من العسكرية الديلمية والتركية اللتين كانتا تتجاذبان الزمام بمنطق المغالبة والفتك..

ومما يعكس تدهور الخلافة العباسية ، حدوث الإجتياحات العسكرية المذهبية التي كانت تنتهي أحيانا الى الحاضرة بغداد ذاتها، وتتوسل بالقوة الى مقاصدها الانقلابية، مثل ما حدث في زمن القائم إذ نزل القائد البساسيري الى بغداد ، واحتل منابرها ، وخطب يدعو الى العلوي (العبيدي) فما كان من الخليفة إلا أن خرج مع زمرة قليلة للتصدي لهذا الإختراق، ثم ما لبث أن غادر العاصمة مغلوبا على أمره، ليعود به القائد طغرل بك الى حاضرتة ، ولتبدأ بذلك صفحة

جديدة من التحكم العسكري السافر، والتنفذ في شؤون الخلافة من منطلق غطرسة ذريعة ، بلغت الذروة في تلك المصاهرة الإرغامية التي زفت فيها ابنة الخليفة ذاتها إلى طغرل بك نزولا عند مشيئته..

لقد أضحت (الخدمة) أو التجيل التشريفي، قسمة بين الخليفة والسلطان سواء بسواء ، بل لقد رأينا الخليفة بات يركب لملاقاة السلطان البويهبي حين استدعته العسكرية الى بغداد ، لملء الشغور السياسي الحادث بها على إثر وفاة أخيه حاكم البلاد الأسبق...

لقد باتت البيعة تعقد للسلطان أولا ، ثم للخليفة بعد ذلك، ولم يكن الدافع الى عقدها لهذا الأخير في ذلك العهد إلا إرادة العسكر في إضفاء الشرعية على سلطانهم وتبرير جبروتهم، لأن العامة كما أسلفنا، والمؤسسات الدينية والثقافية كانت متعلقة بهذا المرفق الشرعي، فكان حتما أن تتكيف الدوائر العسكرية مع ذلك المبتغى العام، فتتدثر بشعاره ولو شكلا..

لقد رأينا الخليفة، حين شكا إليه الناس إرتفاع قيمة النظارة(المغرم الإنتاجي) ، يشكو ذلك الى السلطان ملكشاة، والى الوزير نظام الملك، لأن الأمر كان في يدهما، ولأن الخليفة لم يكن من القوة ولا من النفوذ بحيث يستطيع أن يغير من أمر النظارة أو غيرها شيئا..

بل لقد فقدت الخلافة حتى الوجاهة الإستشارية، من ذلك مثلا ما كان للخليفة القائم مع الملك كاليجار.. فقد بعث هذا الأخير إلى الخليفة يعلمه بأنه بات يحمل لقب الملك الرحيم، وطلب الإعراف له به، وتلقبه بذلك، لكن الخليفة أبى أن يرخص بهذا اللقب، الذي رآه من خاص صفات الله كما قال، إلا أن هذا العسكري المتغلب لم يتخل عن لقبه السلطاني، ولم يراع إعتراض الخليفة، وظل يشهر به.

وسنجد الفقهاء وأهل الحرمة الشرعية يصدرن الفتوى لصالح المتغلبين من أهل الأمصار الذين يعلنون من أماكن تغلبهم عن إعترافهم بالخلافة العباسية وإنتماءهم السياسي إليها.. من هؤلاء الفقهاء الماوردي، فقد أجرى "إمارة الإستيلاء" وأقرها شرعا، ذلك لأن "الضرورة كما يقول تسقط ما أعوز من شروط المكنة".

ومنهم أيضا الغزالي فقد ذكرت بعض الروايات أنه أرسل فتواه إلى ابن تاشفين السلطان المرابطي، تجويزا لإمراته..

يقول الغزالي في كتاب حمله إلى المغرب أبو بكر بن العربي:

"..إن يوسف كان على حق في إظهار شعار الأمانة للخليفة المستظهر، وأن هذا هو الواجب على كل ملك استولى على قطر من أقطار المسلمين، وإذا نادى الملك المشمول بشعار الخلافة العباسية، وجبت طاعته على كل الرعايا والرؤساء، ومخالفته مخالفة للإمام، وكل من ترمد واستعصى فحكمه حكم الباغي.."

ثم يتحدث الغزالي عن مسؤولية الخليفة إزاء المتغلبين، وواجب إعترافه بهم فيقول:

"يجب على إمام المصير أن يأذن لكل مسلم عادل، استولى على قطر من أقطار الأرض، أن يخطب له وينادي بشعاره، ويحمل الخلق على العدل والصفة."

لقد اتعظ الغزالي، ومثله الماوردي وآخرون، بالوقائع الجارية في عصرهم وبظروف المرحلة، حيث كانت عوائق الإتصال والتوصيل متكاثرة، لذا أثبت هؤلاء العلماء مبدأ الإعتراف الشرعي للمتغلبين حتى ولو لم يذك قيامهم بالأمر كتاب مسطور يصلهم من الخليفة، متى ما أظهروا هم إرادة اتباع الخليفة، يقول:

"ولا يعني أن يظن بالإمام توقف في الرضا بذلك والإذن فيه وإن توقف في كتبه المشهورة، فالكتب قد يعوق عن إنشائها وإيصالها المعاذير، وأما الإذن والرضا بعدما ظهر حال الأمير في العدل والسنة وابتغاء المصلحة للتوفيق والتعيين، فلا رخصة في تركه."

لقد كان أمر الخروج أو الدخول في الطاعة مسيورا على المتغلبين، وغالبا ما كان يحدث إما بإسقاط الخطبة في المصير المارق عن طاعة الخليفة، أو بتعطيل الضمان وحبس ريع الخراج عن الخليفة أو السلطان، أو بمواثقة أحد الخصوم المناهضين للدولة..

لقد بات السلطان يأذن بالخطبة لكل من يقطعه جهة من الأقاليم التي يسيطر عليها ، إذ حاجة الدولة الى الأموال غدت ماسة، ولقاء ذلك، هان على السلاطين أن يتنازلوا عن سيادتهم للخارجين ، و يكتفوا باستلام العوض المادي منهم، وأحيانا كان ذلك العوض لايزيد عن وعد عقيم..

بل لقد كانت التحفيزات على ضمان الخراج تبلغ في أحيان كثيرة حد التمليك والتتصيب ..وهذا حين كان يأذن السلطان للمتغلب أن يخطب لنفسه، وان يذكر اسمه على السكة ، بدل اسم الخليفة، لقاء حق مادي مستقطع لدار الخليفة..وذاك ما زاد من استفحال ظاهرة تكاثر الكيانات السياسية القزمية في مختلف الجهات الإسلامية في تلك العصور.

وربما اضطر أهل الكيانات المستضعفة إلى أن يمنحوا إعترافيهم ويعلنوا عن تبعيتهم في ذات الآن لأكثر من خصم، وربما وجدنا أطرافا تعترف بالخلافة العلوية في مصر، وبالخلافة العباسية بالعراق في وقت واحد.

وإن التمعن في الإحياء السيميائي الذي كانت تحمله القاب الخلفاء، ليكشف عن المأزق القهري الذي كان أولئك الخلفاء واقعين فيه ، فدلالة الطائع، والمطيع، والمتقي...والمتموكل...وغيرها تعبر عن واقع موضوعي صودرت فيه سيادة الخليفة بصورة فعلية .. علما

بأن الألقاب كانت في الغالب من إقتراح العسكر لدى تنصيبهم لمن يختارونهم خلفاء .

الحجاز موطن التقاطع بين الخلافتين العباسية والعبيدية.

وقد كانت الحجاز، موطن الحرمين الشريفين، فضاء التقاطعات والتعارضات السياسية بين الخلافتين العباسية والعلوية، والموطن الروحي للمسلمين فقد ظل التغالب السياسي والمذهبي ممارسا بتلك الربوع ، وظلت منابر المدينة ومكة تذيع الخطب والتتويهاة للخليفة المتغلب..

فقد رجحت كفة العبديين، في عهد فتوة دولتهم، خاصة بعد أن تمركزوا في مصر وتوسعوا في الشام، فكانت الخطبة الحجازية ترفع باسم خليفاتهم..

على أننا رأينا التحول سرعان ما يحدث لصالح العباسيين ما أن يتقوى سلطانهم الزمني.

لقد زالت الخطبة للعبديين في مكة والمدينة عام 479 هـ وتحولت إلى العباسيين ونزعت الشارات العبديية من باب الكعبة، وكتبت شارات أخرى باسم المقتدي..وظل أمر الخطبة على حال من المراوحة بين الخليفتين، أساسه الظهور العسكري ، ومضماره الصراع المذهبي :السني ، الشيعي الذي كان يخفي في ثناياه كل

التناقضات الاجتماعية والثقافية التي كانت تفاعل حركة الحضارة العربية الإسلامية عصرئذ.

وعلى صعيد الأقاليم نجد صاحب عكة مثلاً، قد بعث إلى القائد ألب يخبره بإقامة الخطبة للقائم وللسلطان وإسقاط خطبة الخليفة العبيدي، وحذت حذوه في هذا التحول إمارات شامية أخرى، مثل إمارة ابن مرداس صاحب حلب وغيرها..

ونتيجة لذلك التغالب كانت قوافل الحج محل مساومة سياسية واقتصادية دائمة طرفاها العبيدية والعباسية.

بل لقد رأينا الممالك الخرسانية تحرص على توصيل دعايتها إلى باقي الأصقاع من خلال نشاطات رسلهم في مواسم الحج، ومداخلتهم للحجيج، وقد كانت تنفق الأموال الكثيرة لإصطناع الدعاة من بين الحجيج..

وكانت الفتن تشب في الحرم أو في الطرق المؤدية إليه، فيزداد خوف الناس من مخاطر السبيل، فيتعطل الموسم..

لقد وجدت فلول الأعراب والأكراد والمتغلبين من أصحاب الإقطاعات والإمارات في تعاطي أعمال النهب والسلب موردا ماديا يواجهون به الحياة، فلم يتورعوا عن ممارسته على أوسع نطاق، وكان ذلك يودي بالأرواح، ويزيد من تفاقم البلاء وتعميق التردّي.

لقد دفع شرط تأمين سلامة الحجيج السلطان الخراساني ابن سبكتكين عام 412هـ. إلى إعطاء رشاوى لشيوخ الأعراب حتى لا يعترضوا سبيل حججه، ومثل هذا الصنيع كانت الخلافة العبيدية والعباسية ذاتهما تلجأن إليه أحيانا، وأحيانا كان حججهما يتعطل عن شهود الموسم..

على أنه يجدر بنا أن نلاحظ أن شأن العسكر لم يكن في هذا العهد التقهقري يعيش الصعود، رغم أيلولة الأمر اليهم كما أسلفنا..

لقد تأثر وضعهم بتدني القيم، وقد كانوا في الواقع مسؤولين عليه بشكل جلي، وأضحى التدني المادي والمعنوي ينالهم، ولم يكن لديهم من أسباب المدافعة عن الذات الطبقية إلا العسف..

لقد عرض سلطان الدولة البويهية عام 405 هـ ولاية العراق على الرخجي، فامتنع هذا قائلاً:
ولاية العراق تحتاج إلى من فيه عسف وخرق..

وإنها لصورة تتجسد فيها الشخصية العسكرية النزاعة إلى البطش والخرق كما رسمتها الأدبية التاريخية لذلك العصر.

فالديلم والأتراك وهما الفئتان اللتان كان الإحتراف العسكري يخصصهما يومئذ، كانتا على مستوى منحط من أخلاقية التعامل

ومباشرة المهام النظامية، فزيادة على تحلل جنديتهما السافر من العقيدة، نجدهم يعطون بسلوكهم المثال الحي للخرافة والغلبة.

وانها لمنازع تتسم بها عادة نفسية المحترف، وبها يتمكن من التكيف مع متطلبات القهر التي تناط بالجندية في الأساس..

ولقد كان إعتساف الجند يحمل الناس، غالبا، على الثورة وإيقاد نار الفتنة، فالنظام الاجتماعي المتردي كان قد أفرز من الفئات المهمشة والمحرومة فواعل شغب وغضب استفحل شأنها وأضحت طرفا اجتماعيا له ضغطه السلبي على الحياة.

إنها فئات العيارين واللصوص التي كانت تتكاثر وتتركز في الحواضر والمدن لتقابل طوائف الأعراب والأكراد ومتوحشة البادية والريف من فواعل الهدم التي كانت الأحوال العامة للبلاد الإسلامية تفرزها، وتشجع على تزايد أوساطها.

ويورد ابن الأثير في هذا الصدد أخبار كثير من الفتن التي كانت تقع ويتأجج أوارها لأوهى الأسباب، وما ذلك إلا لأن قابلية التنافر والعراك قد استحكمت في نفسية المجتمع الإسلامي بعد خروجه عن مرحلة الأمان بما صصار يفشو فيه من جور وظلم وحرمان..

ومما رواه ابن الأثير في هذا الصدد فتنة وقعت في بغداد عام 417 هـ. وكان باعثها تسلط الأتراك (الجند) الذين "اكثروا

مصادرات الناس وأخذ الأموال حتى أنهم قسطوا على الكرخ (حي بمدينة بغداد) وحده، مائة الف دينار، فثار الناس وعظم الخطب وزاد الشر - كما يضيف المؤرخ - وأحرقت المنازل والدروب والأسواق، ودخل في الطمع العامة والعيارون، فكانوا يدخلون على الرجل فيطالبونه بذخائره، (كما يفعل السلطان بمن يصادره)، فعمل الناس الأبواب على الدروب، فلم تغن شيئا، ووقعت الحرب بين الجند والعامة، فظفر الجند ونهبوا الكرخ وغيره، فأخذ منه مال جليل، وهلك أهل المستر والخير."

إن إشارات هذا الخبر لتكشف عن أبعاد ظاهرة التحلل التي كانت تعرف عصرئذ أحد مستوياتها المتقدمة، إذ أضحت فاعلية الضبط (العسكر) هي نفسها مصدر إستبداد تفكيكي رهيب، وكان من نتائج ذلك أن تذرع الناس بأسباب المنعة والتستر، وبات المكتسب المادي موضوع تنازع وإغتصاب بين آلة النظام في الدولة: الجند، وبين فئات المجتمع الأخرى من قوى الفتك..

لقد كشف الخبر أن المصادرات كانت سبب الفتنة، وكانت دائمة، وأن الفتنة تجاوزت نطاق التوتر والبلبلية لتؤول إلى فعل تدميري سافر وشامل باحترق المنازل والدروب والأسواق.. وذلك ما أتاح لقوى النهب أن يتدخلوا ويصعدوا من الخطب، ويعمقوا من المحنة، بملاحقة الناس الذين يكونون سلموا من البلية، فينتزعون منهم ممتلكاتهم وذخائرتهم.

ودفعا لهذا الشر تحصن الناس بالأبواب، إذ سورا دروبهم دون جدوى ، وذلك واقع مازالت آثاره باقية في تجمعاتنا العمرانية القديمة.. لقد أضحي بناء الأسوار حول القرى والقصور وتعددين الأبواب والإحتياط للمداهمات، من مميزات العمران في عصور التردى والإنحطاط.

وتلك حال تكيفية تعود ببعض أسبابها إلى معطيات هذا العصر الذي نتحدث عنه..

لقد عملت التفككات الإجتماعية المؤلمة على التعجيل بأفول نجم الحضارة العربية الإسلامية، وأضحى الإحتجاب هو الوسيلة الوقائية التي يعتصم بها المسلم مخافة أن يتجرد من ملكيته المادية أو الروحية.. لذا ساد منطق التكر وإظهار الخصاصة احتفاء بالفقر من الشر ، وسيكون لبس الخرق (الصوفية) على الصعيد الروحي رمزا للرضى بالمحنة..

لقد تمكن الوازع الكفافي من الوجدان الجماعي، وذاعت فكرة النكوص بعد الإكتمال وساد الأحساس بأزوف الساعة ، وعم الإعتقاد في الخوارق والأوهام.. وتكلست دينامية الحياة وجف العود، لولا أصل ضارب في الأعماق: كتاب الله حصن الأمة الفذ .

لقد كانت الروحية العسكرية في حالة شقاق وتمرد لم يسلم من بوائقها حتى السلطان، صاحب العسكر.. وما أشبه حاله بحال مروض

الضواري ، لن يسلم من نهشها إذا ما جاعت ، إذ كان استخلاص الراتب يحملهم على الفتك برؤسائهم، أو الإنقلاب ضدهم، واتباع قائد آخر يرجون عنده المنال المادي..

حدث في عام 418، بعد الواقعة المذكورة سابقا ، أن الجند التركي أحس بالخطر على وجوده، خاصة وأن الفئات المحرومة بما فيها الأعراب والأكراد والعيارون قد طمعوا في الأمر، بعد الذي رأوه من ضعف الجند ، فتشاوروا وبعثوا الى الملك جلال الدولة بالبصرة ليصعد الى بغداد، حيث كان النظام منحلا، والعسكر بلا سلطان يجمع كلمتهم.. فاستجاب لهم ونزل بغداد، وكان الترتيب لجلال الدولة دون مشاورة الخليفة ، وانتصب في مهمته السلطانية وضرب له الطبل أوقات الصلاة تمكينا له في الملك، غير أنه لم تمض عليه سوى أيام حتى عاد العسكر الى الشغب عليه فما كان منه إلا أن باع فرشه وثيابه، وخيمه ، وفرق ثمنها فيهم حتى سكنوا .

ويهمنا-حتى نضع القارئ في الصورة- أن نورد الواقعة كما رواها ابن الأثير بحرفيتها، لما يشي به سسدياقها من تصوير لجوانب ذلك الواقع المشحون بالترديات التي كان من نتائجها ذهاب ريح الدولة رغم شخوص وهمي للخلافة ظلت تفاعل به الأحداث من وضع احتضاري رهيب.

يقول ابن الأثير:

" في هذه السنة ثار الأتراك ببغداد على جلال الدولة وشغبوا وطالبوا الوزير أبا علي بن مأكولا بماله من العلوف والأدرار ونهبوا داره ودور كتاب الملك وحواشيه حتى المغنين والمخنثين، ونهبوا صياغات أخرجها جلال الدولة لتضرب دنانير ودراهم وتفرق فيهم، وحاصروا جلال الدولة في داره ومنعوه الطعام والماء حتى شرب أهله ماء البئر وأكلوا ثمرة البستان، فسألهم أن يمكنوه من الإنحدار فاستأجروا له ولأهله وأثقاله سفنا، فجعل بين الدار والسفن سرادقا لتجتاز حرمة لئلا يراهم العامة والأجناد، فقصده بعض الأتراك السرادق فظن جلال الدولة أنهم يريدون الحرم فصاح بهم يقول لهم: بلغ أمركم الى الحرم، وتقدم اليهم وبيده طبر ، فصاح صغار الغلمان والعامة جلال الدولة: يا منصور، ونزل أحدهم عن فرسه وأركبه إياه ، وقبلوا الأرض بين يديه، فلما رأى قواد الأتراك ذلك هربوا الى خيامهم بالرملة وخافوا على نفوسهم، وكان في الخزانة سلاح كثير فأعطاه جلال الدولة أصاغر الغلمان وجعلهم عنده ، ثم أرسل الى الخليفة ليصلح الأمر مع أولئك القواد فأرسل اليهم الخليفة القادر بالله فأصلح بينهم وبين جلال الدولة وحلفوا وقبلوا الأرض بين يديه ورجعوا الى منازلهم ، فلم يمض غير أيام حتى عادوا الى الشغب فباع جلال الدولة فرشه وثيابه وخيمه وفرق ثمنها بينهم حتى سكنوا"

فالمشهد غير محتاج لتعقيب.

والى جانب هذه الفتن الإجتماعية كانت الحياة الثقافية في تلك الحقبة ملغمة ، نهبا لحال من الشحاء التعصبية التي كانت تجد في الإنفصام المذهبي سني/ شيعي مادة استعارها..

لقد عمل التشيع البويهى على تغذية نار الفتنة بين طوائف المذهبين المتساكنين في الحاضرة بغداد وفي باقي أطراف الدولة. فقد أمر مثلا معز الدولة الشيعي في سنة 351هـ بأن يكتب على المساجد ببغداد ما فحواه:

" لعن الله معاوية بن أبي سفيان ، ولعن من أغضب فاطمة رضي الله عنها فدكا، ومن منع من أن يدفن الحسين عند قبر جده عليه السلام، ومن نفى أبي ذر الغفاري، ومن أخرج العباس من الشورى..".

ولم يستطع الخليفة المطيع أن يفعل شيئا إزاء هذه الإثارة ، فقد " كان محكوما عليه، لايقدر على المنع ".

وظلت هذه المصادمات المذهبية تزلزل استقرار الحواضر والبوادي، وراحت التفاقمات تأخذ أبعادا تدميرية، حتى كانت المشاهد الشيعية والمواسم الدينية الأخرى فرصة تجد فيها الأطراف المسحوقة وعناصر الهدم في المجتمع المناخ المناسب للإنتفاض ، والنقمة، والتنفيس عن مشاعر الحقد الطبقي والعرقى والنحلي التي كان يراكمها في النفوس غياب مبدأ العدالة، وترسخ منطق المغالبة القهرية.

الدولة الحمادية:

قراءة في جدلية التفكك أو الإنبثاق السياسي

حينما أنتقل العبيديون الى مصر ، لم يكن في حساباتهم أنهم سيفقدون الموطن الذي عرف ميلاد دولتهم، إفريقيا ، بعد حين غير طويل..

فواليهم الزيري الذي تركوه على إفريقيا وبلاد المغرب قد اضطرته الأحوال الأمنية الى التنازل الجزئي عن سيادته في المناطق الغربية لفائدة عمه حماد لقاء تولي هذا الأخير مهمة القضاء على إجتياحات الزناتية التي كانت تهدد الدولة الزيرية من الجهة الغربية، وربما كان هذا التدبير أحد أهم أسباب التشرخ والتفكك التي ستطرا على بنية الكيان السياسي للدولة العبيدية التي توسعت من المغرب الى المشرق وفي خلد حكامها أنهم بصدد التمكين لخلافة شيعية ستستوعب أرض الاسلام من أقصاها الى أقصاها..

لقد أثر عن المعز لدين الله الفاطمي أنه أوصى خلفه الذي اختاره واليا على إفريقيا بكلمة أجمل فيها أمورا كان يقدر أنها ستمكنه، اذا ما رعاها، من ضمان الاستقرار لبلاده، وبقاء الحكم في يده، على اعتبار أن البلاد ستظل جزءا من السيادة العبيدية.. لقد طلب اليه أن يلتزم بثلاث مسائل يقيم عليها سياسته ، استبقاء للأمر في يده:

ألا يرفع الجباية عن أهل البادية، ولا السيف عن البربر، وألا يولى أحدا من إخوانه وبني عمه"

ومن الواضح أن الوصية تركز على عنصري التخضع والتفرد بالسلطة.

فإجراء الجباية على البدو كان الهدف منه، كما نستنتج، وضعهم، وبصورة دائمة، تحت طائلة المطالبة والتغريم السلطاني ، وذلك ما كان سيجعلهم في موقع المسود، والمعترف بالدولة، والمنطلع الى رحمتها باستمرار..

ومن جهة أخرى تنصح هذه الوصية الحاكم بسلوك مسلك الشدة مع البربر ، إذ تشير عليه بأن يتبع إزاءهم سياسة قهرية لاهوادة فيها: استخدام السيف، كفا لنزوعهم التمرد ، والحيلولة دون وازع الخروج عن السلطان الذي كان المعز يلمسه مكينا فيهم..

كما أن الوصية تعرض الى العلاقة السلطوية التي ينبغي أن تكون بين شخص الوالي وآله.. علاقة تفرد واستقلال بالسلطة لاينبغي أن تدمج في شأنها السلطوي أحدا من أصوله أو من فروع..

والواقع أن الوصية في إشارتها الأخيرة، تتجاوز نطاق ظرفيتها، إذ هي تتشد حالا لم تكن العصور الوسطى على الأقل مؤهلة للخروج عن منطقة.

لقد ظلت العصبية الأسرية والقبيلية أساسا لتنازع السلطة وتوارثها في شريط تقلبات الأوضاع السياسية عصرئذ، وفي جدلية قيام الدول وسقوطها..

ولا بدع أن نجد ابن خلدون وهو عالم سيعضه عصره من خلال موقعه التمرسي والتأملي، على صلة مباشرة بالفعل التعصبي، يقرر بشأن الظاهرة السياسية والسلطانية شرطا عصيبا يمكن لها ويمهد الطريق إليها..

وإذا كنا نفترض أن مبادئ الوصية المعزية كانت تمثل المسطرة الذهبية التي ظل الساسة يومئذ يعتمدونها لدوام الملك وبقائه في أيديهم، وأن هذه المسطرة قد شرطت لبلوغ هدفها أمورا هي قمع مطامح ذوي القرابة في التولية، وتدجين الأهالي البدو من خلال إستبقائهم تحت نير الجباية، وانتزاع الطاعة من الحضر (البربر) بالقوة، والاستبداد بالسلطة واصطناع الحاشية المتحركة بحوافز الترغيب والترهيب، فمما لا ينبغي أن يفوتنا في هذه المسطرة هو تغاضيها عن تحديد الأسس البناءة التي يقتضيها الملك، لا سيما شرط العدالة ومناذرة مظاهر الظلم والجور التي بها يأنس الناس للسلطان.

فإشكالية الحكم بمعناها البطشي كانت تجد في ثالث: الجباية - السيف - الإستبداد بالسلطة، ترجمتها وصورتها، وهو ما رجح عوامل الفتنة والصراع.

قد كانت الدولة في القرون الوسطى تتبلور من خلال هذه المبادئ التخضعية، إذ كانت تشد دوام حياتها من خلال الأخذ بالالزامات قهرية تفرضها على الرعية، وهو ما جعل عمرها لا يطول.. إذ كانت تلك الالزامات غالبا ما تنتهي عند حد تلبية حاجات أسرية وفيئوية كان يتوقف عليها أمر تماسك الملك وثبات عصبته.

ومن البديهي أن منطق الإلزامات كان يعني غياب المشروع، فنظام دولة العصبية كان إبتزازيا لا اعماريا، وحتى ما ينشأ من عمارة يدخل في حسابات العصبية غالبا.. وذلك ما يفسر كلال أغلب محاولات التجديد السياسي التي قامت بها العصبية والدول المتغلبة والخلافات المتنافسة.

وبغض النظر عن قيمة الرؤية التي صدرت عنها وصية المعز التي رأيناها آنفا، فإنه لجدير بنا أن نستعرض الوقائع التاريخية التي تلت تلك الوصية، والمآل الذي عرفته الخلافة العبيدية من حيث علاقتها بالأرض التي تحولت عنها وبالقوم الذين عرفت بينهم واقعة الميلاد والظهور..

فاتحة العهد البربري بلكين بن زيري بن سناء الصنهاجي الذي استخلفه المعز على إفريقية عام 361 ودام عهده من 362 - 373 هـ. حارب زناتة وصمد مغراوة من المغرب الأوسط فالتحق الزناتيون سياسيا بالمنصور بن أبي عامر الأندلسي، وعملوا (تابعين) له في فاس والمغرب، ثم ساءت العلاقة فتحاربوا، فتوسع المغراوي

وعوض ما سلب منه ابن ابي عامر من البلاد، بما أخذ من أراضي المغرب الأوسط، ودامت دولة مغراوة قرنا وانتهت على يد المرابطين عام 461 هـ.

تولى بعد بلكين ابنه المنصور فظهرت بوادر الإنشقاق، إذ خالفه أخوه والي تيهارت وتحاربا، ولما كانت زناتة دائمة التربص بالزيريين، فقد استعان المنصور بأخيه حماد فبرز حماد في الميدان، قائدا محنكا..

ثم تولى باديس بن المنصور فوجد شخصية حماد قد استوت، واحتلت الصدارة العسكرية، فاستعان به ضد زناتة وبسبب صغر سن باديس وضعفه خرج عليه بعض أعمامه، فأستغل حماد الظروف، واشترط واشتط في شروطه على باديس الذي انتدبه الى حرب زناتة..ومن جملة شروطه التنازل عن إقليم (أشير) وما إليه من مناطق، وكذا الجهات التي سيحررها حماد.

كان المغرب الأوسط جزءا من إفريقيا، وكان الصراع دائما بين الزيرية والمغراوية، وهكذا اضطر باديس إلى البحث عن اتفاق مع عمه يملكه بمقتضاه آشير وكل ما يفتحه من بلاد زناتة مقابل صد الأعداء عنه.

في تلك الأثناء رشح الخليفة العبيدي الحاكم بأمر الله من مصر -عامله المنصور بن باديس لولاية العهد وأوعز بزحزحة حماد

من سيادة بلاده بإقليم آشير، إذ كان حماد قد أعلن خروجه عن المذهب الشيعي، فتصادم مع باديس وانهزم، فانسحب إلى القلعة ليحاصره باديس هناك، ثم مات باديس فجأة، فأستعاد حماد المبادرة، وتولى الأمر المعز بن باديس الذي كان صغير السن، فأنتهت الصدامات بين حماد وبين المعز بالصلح، وكانت التوجهات الإستقلالية عن المركزية العبيدية قد بدأت يومئذ تشغل بال الزيريين أكثر فأكثر، فقبلوا الصلح مع حماد.. وتم الإعتراف بدولته..

وهكذا كان أول خروج عن السيادة العبيدية على يد حماد.
(بدء تفكك بنية ثالث خلافة إسلامية).

وفي عام 407 هذا المعز بن باديس حذو حماد في الاستقلال عن العبيدية.

سيرورة التحلل والتفكك كما عانتها الولاية الزيرية في كنف الخلافة العبيدية.

لقد مرت الزيرية بعهود تعاقب فيها عليها ملوك قبل أن يقع تفككها وتتحرش بها الدول والقوى الخارجية، ويمكن أن نسجل كرونولوجيتهم وأهم ما عرض لها من أحداث على النحو التالي:

عهد بلكين
عهد المنصور
عهد باديس
عهد المعز

عهد المعز ومن

تلاه من أبنائه

تاكثيك الحماديين بإعادة الاعتراف بالعبيدية.(وهو ما قام به الأمير القائد بن حماد).

تفكك الدولة الزيرية واقتسامها بين الأسرة الزيرية / الهلالية / والحمادية.

الزحف النورماندي يستولى على ثغور إفريقيا وبجاية.

المد الموحد الناشئ بقيادة عبد المؤمن يفكك ويستوعب الكيانيين: الحمادي والزيري، ويتصدى للنورماند ويطردهم.(إعادة التشكل).

فسيرة الانقسام ، بدأت على هذا نحو جرثومية، خلوية.

فالانقسام بدأ ثنائيا : الحمادية تخرج عن الزيرية ، ثم لا يلبث أن ينزع الانقسام نحو التشكل والتكاثر، فقد أسفر نتيجة التناوب العائلي الزيري عن إنبثاق كيانات زيرية في الأندلس بعد أن هاجر بعض إخوة بلكين إليها..وفي خضم الصراع على الملك، تنشط دينامية الانقسام وتقوى جدلية التجاذب والتناوب، فالجزء يخرج عن الكل ، فيباشر الكل عملية الإسترداد، وفي غضون ذلك يظل الجزء المنفصل عن الكيان يسعى لإكتمال أسباب النمو وصيانة الذات الناشئة

وتقويتها لا ليحافظ على إستقلاليته فقط ، ولكن ليستوعب المحيط المتربص به والذي يعمل بلا هوادة على إفنائه في بنيته من جديد..

فالجزء تنزع به المطامح لأن يصير كلا، وقد ينجح ، ففي الحالة الحمادية أوشكت العملية أن تتحقق.. وبقي الزيريون يقاومون الأطماع والمداهمات الداخلية والخارجية ، ولم يتمكن منهم الحماديون(الجزء)بالرغم من تكرار المحاولات وآخرها كان في عهد يحي بن العزيز آخر الأمراء الحماديين..

وقد تظل العملية مد جزرية، حتى تنتهي الظروف لكيان أقوى يدهم المشهد، فيستوعبه كلية، كما حدث للمغرب والأندلس على يد المرابطين..

فالتشكل السياسي للكيان الحمادي داخل بنيته العضوية : بني زيري من جهة وضمن الكينونة السياسية والروحية العبيدية باعتبارها الماهية الخلفية (خلافة) الإطار ، قد اتسم بارتباط مرحلي تولى فيه بلكين - ممثل الخليفة العبيدي بإفريقيا- القيادة وضبط البلاد، ثم بدأت أعراض التفكك الداخلي تبرز مع من أعقبه (المنصور ثم باديس) حتى كان عهد حماد الذي تميز بتفاهم الضغوط العسكرية المتزايدة التي كانت تمارسها مغراوة الزناتية على الحماديين، عندئذ تحتم على باديس أن يتنازل عن جزء من سيادته لصالح حماد انقاء لشر الإعتراك الدائم ، وكان ذلك التنازل أول شق يصيب جدار الوحدة..

لقد كان حماد على وعي بالوضع الذي تعيشه الدولة الزيرية، وخاصة في ظل تحرشات النورماند، فكانت شروطه على باديس أساسية، تطلع من ورائها إلى تحقيق سيادته على مناطق ولايته..

وإذا كانت ردود الفعل الزيرية المباشرة ضد استقلال حماد عنهم قد جاءت صارمة ، وقوية ، وقاسية ، إذ حوصرت عاصمة القلعة سننتين نال فيهما المناطق العمرانية كثير من التخریب.. فإن وفاة باديس المفاجئة كانت من أسباب الانفراج التي أسعفت حمادا على الإحتفاظ بإمارته..

لقد أفضت الإتصالات بين حماد وبين المعز إلى عقد نوع من المصالحة والتراضي، وتم تبادل الاعتراف بين الطرفين. وكانت رابطة المصاهرة لاحما آخر يدعم رابطة الدم ويمد جسور التساكن وحسن الجوار بينهما..

وسيعرف عهد الأمير المسمى: القائد بن حماد (ذلك العهد القصير) تحسنا في علاقة الحماديين بالعبيديين على حساب الزيريين، لقد أعاد الاعتراف بالخلافة العبيدية بعد أن رأى المعز صاحب إفريقية يقطع علاقته بهم، وكان من نتائج ذلك أن أرسل العبيديون بقبايل بني هلال لتخريب ملك بني زيري.. الخارجين عن سيادتهم.

أتاح ذلك التواصل التكتيكي بين القائد وبين العبيديين ، للإمارة الحمادية أن تظل إلى حين، بمنأى عن الدمار والإجتياح الهلاليين، وذلك ما ساعدها على تحقيق نهضة سريعة، وفي مختلف المستويات..

لقد باتت الهجرات تقصد إلى الحمادية من حواضر إفريقيا ، بعد أن تخربت القيروان وتحول عنها المعز الزيري إلى المهدية، وظلت القبائل الهلالية تستولي على المدن تباعا، وتخربها، ولم يكن أمام أهاليها سوى الخروج بأمعتهم ومهاراتهم إلى القلعة الحمادية.

كما كانت القلعة تستقبل في ذات الوقت الجماعات والأفراد سواء منهم الفارين من السلطان المرابطي الذي كان يتركز في المغرب ويتطلع إلى القلعة، أو المتقاطرين عليها من الأندلس وصقلية التي سقطت في يد المرابطين وما ترتب عن ذلك من نزوح كبير للأندلسيين نحو القلعة..

فالاستقرار النسبي الذي تميزت به القلعة ، والإحساس بالأمن الذي توفر لها، قياسا بالمحيط الإقليمي من حولها جعلها تغدو مثابة تتجمع فيها مستويات بشرية وثقافية وحضارية مختلفة تعكس مشارب وألوانا عدة، مكنتها من أن تبني مجتمعها، وتوصل نموذجا مدنيا وعمرانيا على مستوى عال من الرقي والتطور شهد أجلى مظاهر إمتيازه حين تحولت الحاضرة الحمادية من أشير إلى بجاية.

ذلك التحول الإستراتيجي الذي كان المنصور الحمادي يتطلع من خلاله إلى الإستحواذ على ملك إفريقيا بأكملته، بعد أن أفلحت الدولة الحمادية في استلحاق عدد من المدن والأقاليم التونسية بكيانها، إما بالقوة أو بالإختيار ، مثل ما فعل سكان مدينة تونس، إذ أعلنوا تبعيتهم له طاعية .

لقد تمكنت الإمارة الحمادية في عهدي الناصر والمنصور من أن تتوفر للتعمير والتشييد، فبالرغم من الحركة القتالية المتواصلة التي ميزت العهدين والتي كانت مركزة على الأطراف، ضد زناتة، ومغراوة، ثم لصد التوسع المرابطي الذي كان يتخذ من تلمسان قاعدة انطلاق نحو تيهرت، وأشير، والجزائر. والشلف، إلا أن الهيبة التي بانت تتوفر للدولة الحمادية كانت تجعل محيطها ينظر إليها بحذر لا مرأى فيه.

ظاهرة الإنقسام من خلال الشاهد الحمادي :

الجزء المتجزئ

في البدء كانت البنية نمائية ، إذ توسع الكيان نحو أرجاء جديدة واستدعى التوسع تحويل المركز = الحاضرة إلى موطن يضمن الحيوية للدور السياسي الجديد.

فالإنقسام بدأ جهويا إذ الكتلة المتحول عنها لم تخرج عن نطاق طاعتها كل الأطراف المكونة لها، ولكن جزءا منها فقط باشر المروق.

الجزء يخرج عن الجزء.

الجزء التابع يخرج عن الجزء المنفصل فيترسخ الإنشقاق.

الكيان الأم يفشل في مد يد العون إلى الفرع التابع له من أجل إعادة الجزء الخارج إلى الحضيرة، فينتج عن هذه الحال بالإضافة إلى ملابسات أخرى، الإستقلال والتفرد بالسيادة .. وذلك ما سيعمل على الدفع بأجزاء تابعة أخرى إلى سلوك سبيل الإنفصال..

الكيان المركزي يتحول بمطامحه نحو البحث عن جهات بديلة .

لقد كان المركز العبيدي طامحا لإستيغاب الشام كمرحلة أولى في طريق احتواء بغداد أو الخلافة العباسية، فكانت قواته مستثمرة في ذلك الإتجاه.

كان الجيش والقادة الكتاميون والصناهجة الذين ارتحلوا مع الخلافة العبيدية يفاعلون الشام للإستيلاء عليها.. الأمر الذي هيا لقبائل البدو الهلالية دورا في عملية التفكك وإعادة التشكل الناتجة عن ذلك الوضع الجديد.

لقد انتهت تلك القبائل يومئذ كأسرار الجراد إلى صعيد مصر قادمة من الشام والعراق والحجاز.. فكان الإجتياح شبه طبيعي، إذ استوطن الهلاليون المغرب، واتخذوا من البلاد فضاء للحركة والفعل..

فقرار استخدامهم كان دون شك من تدبير أكابر كتامة وصنهاجة الذين وجدوا فيهم جحافل شبه مهيأة لضرب الانفصاليين من ذويهم في (فريقيا) على ذلك النحو الذي سيخل كثيرا بشرط التوازن السياسي والاجتماعي والمدني في المنطقة، زيادة عما أتاحه القرار من فرصة التخلص من ضغطهم الفظ، المتقلب، ومن مخاطرهم على دولة العبيديين التي كانت تتشد التوسع والسؤدد على الخريطة الإسلامية برمتها..

بهذا التطور الخارجي والداخلي، الفوقي والتحتي، كان التفكك في كيان الدولة يقع والقطيعة بين الجزء والكل تتوطد..

على أن عناصر الصراع ستظل تتلقى من المعطيات الداخلية فواعل تحريك ذاتية أساسية، متمثلة في حال العداء التي يقوي منها الشقاق بين الأفخاذ القبيلة الأصل.

ففي المغرب كانت زناتة في صدام متواصل مع صنهاجة، وقد لعب الصراع بين الطرفين في مرحلة أولى دورا في إبراز قادة كان شأنهم الحربي في الميدان قد أشهرهم ودفع بهم إلى موقع القيادة

السياسية والتطلع إلى الانفصال، مثلما حدث لبلكين الحمادي.. إذ صراعه ضد زناتة أظهر شمائله وهياه لأن يشق عصا الطاعة ويخالف على ابن عمه المعز الزيري.

يحدث هذا دون أن تتمكن البنية الإطار كما أسمينها (الخلافة العبيدية) من التدخل البناء: إذ تدخلها بواسطة ارسال البدو الهلاليين كان في الواقع هدميا انتقاميا سلبيا لم يحقق لها هدف الإستبقاء على وحدتها..

وسيكون مصير الخلافة ذاتها مصير أقاليمها المنفصلة عنها.. أي الإضمحلال، والزوال، أو التشكل في ملامح مغايرة وضمن صيرورة مخالفة، وذلك ما كان من حال العبيديين، فبعد أن فاعلوا المشرق، وانتزعوا الإعتراف من أطراف إسلامية كثيرة، واكتسبوا مشروعية الإمرة والإشراف على المواسم المليّة الكبرى، وفي مقدمتها الحج، انحسر سلطانهم، واخترقته تفاعلات سياسية تشكيلة أخرى ظلت الخلافة السنية في بغداد تفرزها وتتفعل معها ذاتيا ومحيطيا في سعيها لمغالبة أسباب السقوط..

لقد كان الزحف الأيوبي على القاهرة من عوامل القضاء على الخلافة العبيدية، بعد أن تعددت تضععاتها الداخلية والخارجية، وواجهتها ذات الأوضاع تقريبا التي واجهت الكيان الزيري، ذلك الجزء الذي كان منها، وانفصل عنها، واضمحل في آخر الأمر..

لقد أخذ التشكل مظهرًا تراجعيا، فتفككت الدولة من الداخل، وفقدت أطرافها الخارجية، وأضحت في صراع مع بعض تلك الأطراف : جدلية المغالبة بين الجزء والكل..

ثم جاءت النهاية على يد قوة تهيأت لها شروط الظهور والتمكن، إلى حين، هي القوة الأيوبية التي ورثت الوضع، وباشرت الحياة السياسية التجميعية بالمشرق، على نحو ما كان عليه حال الدولة الموحدية بالمغرب، إذ باشرت هي الأخرى عملية تشكيل موازية، وغدت تصوغ مشهدها من كيانات كانت موجودة هناك، قامت على أنقاضها لتؤدي دورها، وتمضي على ذات الدرب الدوري الذي كانت تمضي فيه الدول إلى أن يأفل نجمها، ويتمكن منها الإنهيار.

ومما تجدر الإشارة إليه أن فواعل التفكك والتفكك كانت تقريبا واحدة في أرض الإسلام، فقد رأينا قيام الدول وسقوطها تساهم في صنعه الحركة الداخلية الذاتية، إذ تدخل في مصارعة ومغالبة الأطراف المتنافية، وتساهم فيه أيضا العوامل الخارجية، وفي مقدمتها الحرب التي كان الصليبيون يشنونها على دار الإسلام عبر جبهاتها البحرية المترامية والمفتوحة على مخاطر تأتيتها باستمرار من قبل دار الكفر بسبب التناقص المتفاقم في عدة التحصينات والقوة الدافعة..

لقد كانت حال الشام تتشابه مع حال بلاد المغرب، من حيث تعرضهما في وقت واحد تقريبا للهجمات الإحتلالية الرومية والنورماندية..

ولقد رأينا المسلمين يقابلونهم باستجابة واحدة تقريبا، فإلى جانب المواجهات العسكرية، كانت هناك المهادنات، بل والإرتباطات، فقد كان من الشائع ما فضل الدخول طواعية تحت الحكم الأجنبي، وربما كان التزويج الشام والفوضى الغامرة تحمل البعض على سلوك ذلك السبيل الإستراتيجي القهري.

على أن ظاهرة التفكك التي شرطت فعل قيام الدول وسقوطها في الحضارة الإسلامية قد انعكست في سلوكات واستجابات دموية متطرفة، فقد كان الهدف التغالبي يعتمد أساليب النقويض القصوى، ولذلك ابتذل منطق التصفية الجسدية الذي كانت توازيه على مستوى العمران، ظاهرة امدار المنشآت والممتلكات، وتلك هي بالذات مظاهر التوحش، والنكوص التمدني والحضاري.. وهو ما يميز تقريبا تفاصيل سائر وقائع التشكل السياسي التي عرفت المدنية العربية الإسلامية في حقب انحطاطها، وخاصة بعد القرن الرابع هجري..

وسنحاول استقراء شيء من مظاهر التطرف العنيف التي ميزت ظهور الدولة الحمادية من خلال سلوك زعمائها، وما اتصف به حكامها من نعوت «سجلها التاريخ بشأنهم».

رصد لبعض فواعل الخلاف، ومظاهر التصفية في العهد الزيري الأول.

- أبو البهار بن بلكين والى تيهرت يخالف أخاه المنصور الحاكم الزيري.. والمنصور يحتويه ويحسن إليه.
- حماد كان كثير التخريب والهدم للعمران، كثير القتل للناس في معاركه ضد باديس الزيري - قتل الشيعة وأظهر السنة.
- القائد بن حماد : يصفه ابن خلدون بأنه كان جباراً، وقد أخضع زناتة بالحرب
- محسن بن القائد: امتاز بالاستبداد والقسوة الشديدة، إذ قتل من أعمامه أربعة.
- بلكين بن حماد : اتهم جماعة من بينهم زه جته بقتل أخيه مقاتل، فأعدمها وأعدمهم .
- الناصر بن علناس : انتقم لأخته (زوجة بلكين) فخادع بلكين كأنه يسلم عليه، وطعنه ، وذبح زعيم زناتة بسكرة على بن بركان.. بيده.

أوعز بقتل زعيم آخر زناتي بسكري ، فهبئ له طعام وأشير الى الحاشية بقتله هو وأصحابه عند انكبابهم على الطعام، ففعلوا وأرسلت الرأس الى الناصر، فنصبها على باب بجاية.
- المنصور بن الناصر : تزوج بابنة زعيم زناتة ، ولكن المخادعات الحربية تجددت بين الطرفين، فتواجه المنصور والمرابطون أسياذ زناتة ، فانهزم، ودفعه الحنق الى قتل زوجته أخت ماخوخ الزناتي .

- باديس بن المنصور : قتل عامله وعامل أبيه على بجاية، وأساء الى أخيه العزيز والى الجزائر فعزله ونفاه، وألقى ببعض

الصالحين الى الأسود وهو حي، وتوعد أمه بالقتل.. ويقال إن موته نتج عن تسميم أمه إياه..
العزيز: عهده عهد سلام، ومهادنة، وكان هو الذي أخرج المهدي تومرت من بجاية بسبب المشاغبة التي أحدثها مرور الداعية هناك.

يحي بن العزيز : كان ، كما يصفه بعضهم، فاضلاً، حلماً، فصيح اللسان والقلم .. مولعاً بالصيد كلفا بالملهين يحضر منهم عنده نحو العشرين بين رجل وامرأة من شيوخ وعجائز حمقى، ويستلقي في بيته على الفراش الوثير الحشاي ، ويستدعي المضحكين وجوارح الصيد ، فيختبر هذا البازي ويتفقد هذا الكلب، ويستتهض هذا المضحك في النوع الذي يسلكه فيلهيه ويضحكه، فلا يزال كذلك إلى أن ينام، ثم يغتدي إلى الصيد.. هكذا انقضت أيامه."

- تقاعس عن نصرة الحسن الزيري الذي كان النورماند يطرقون أرضه، ودخل معه في حرب كانت نائجها وخيمة على الطرفين، إذ زحف النورماند على ثغور المغرب الأوسط وأفريقيا..

هذا ، وينبغي أن نشير إلى أن مظاهر الإستئصال لم تكن تستهدف الإنسان وحده، بل كانت تطال الحواضر والعمران..، لذا رأينا امحاء حواضر باكملها ، وكان ذلك يتم في نطاق جدلية التدافع العنيف التي كانت تحكم علاقة القوى المتغالبة.

فلقد تخربت القيروان مثلاً نتيجة أعمال العنف والإجتياح الهلالية، ومثلها تهدمت القلعة عاصمة الحماديين الأولى، وكان تهديمها على يد الهلالية أيضاً وبحصارات وتهديدات الجار الزيري كذلك..

على أن منطق الهدم هذا لم يكن السائد وحده، بل لقد رأينا الإنبثاق الحضاري ما يلبث أن يعقب أعمال الدمار..

فلقد شيدت بجاية مثلاً حين استحکم الخراب في القلعة وتعسرت المعيشة فيها.

وهذا المنطق رأيناه يشمل تقريباً الأمصار والأقاليم كلها. فقد كان زوال ملك في جهة ما، يترتب عنه -غالبا- انتعاش أو انبثاق ملك في جهة مقابلة، وذلك بفعل هجرة الناس وتحولهم إلى فضاءات عمرانية بعيدة عن الفتن والملاحقات.. غير أن دافعية الانبثاق تلك لم تكن على ذات المستوى والوتيرة اللذين كانت عليهما دافعية الدمار.

لذا راحت مظاهر التجدد والخلق تنقلص بتسارع متصاعد تقريباً، فشمل الناس جو من البؤس والقلق الوجودي، وراحت معتقدات روحية استقلالية، وخمد الابتكار، واطرد الإجتراح، وعاش المسلمون منغلقيين في حدود ذاكرة تحسرية، لا تكاد تتداعى إليها صور الاشرار والعزة لأن المسلمين كانوا يعيشون أحوالاً من

الحنين مفعمة بالتفجع، فكان لهم من ثمة في الإستكانة والإنقياد الى قدرية فصامية سبيلاً للتكيف والإحتمال..

و لعل ما كان يضيفي على هذه الجدلية التي كانت تربط بين العناصر والجماعات المفاعلة، طابع الحذر والتطرف، هو ارتكازها على منطق الإلغاء غالباً، إذ كانت الحلول الوسطى التفاوضية غائبة وغير واردة، وإن هي اعتمدت فلمقاصد تربصية غالباً، لأن السلامة كانت تتحقق على شرط اعدام الآخر ونفيه، سواء أعلق الأمر بالأفراد أم بالجماعات، لذا كان أسلوب الفتك هو القاعدة التي تتوسل بها القوى المتطاحنة إلى أهدافها.

على أنه كان للأطراف المتنازعة في صلة المصاهرة، وجه من أوجه التهادن ومد الجسور..

من هنا كانت الصلات الدموية في الحالين: المغالبة والمساكنة، هي إطار المعادلة الإيجابي الذي كان يقوم عليه التعامل السياسي بمظهره الإيجابي في تلك العهود التي كانت فيها العملية السياسية تراوح في شبه حلقة مفرغة، إذ كانت الجماعات والأقوام والدول تتعاقب وتمارس أحوالاً من تجربة القيام والسقوط من خلال فعل التفكك والتشكل الذي كان عامل الدم والرحم يقوم فيه بدور مهم، بناء وهدماً..

لقد تقصدنا التطرق إلى الظاهرة السياسية الدورية التي كانت عملية تشكل الدول وانهيارها أبرز تجسيدات.

ومن نافلة القول تأكيد الطابع المأساوي الذي كان ينعكس بالسلب على الإنسان المسلم خاصة والحضارة والعمران عامة.

لقد كانت الصيرورة السياسية في عصور مدنية المسلمين تلك، تتخذ شكل المخاضات المبتسرة المتلاحقة..

فباستثناء مراحل ابتدائية، رأينا فيها الدولة، أو بالأصح الخلافة، تتمكن من انجاز مشاريع عمرانية وثقافية وحضارية تتصف بطابع الرسوخ وبالمردودية الأدبية أو المادية المحسوسة، فإن مراحل الضعف والتحلل قد طغت على تاريخ المسلمين، وكانت الفتن لا تتي تعاود هدم كثير مما يبتونه، وهو ما جعل أعراض التفكك الداخلي في المجالات الاجتماعية والسياسية تتكاثر وتتعدد .

قد نشب في الجسم مقلب الإنقسام والتشتت ، وغدا التقاتل والصدام من مظاهر الوجود المدني الاسلامي ، وبذلك كانت الدول الاسلامية تعيش التصدعات، وتسير بسرعة نحو الانحدار والانهيار.

إن هذه الآلية المخاضية، المأساوية، الدمارية، شبه الحتمية، هي نفسها تقريبا التي كونت الإطار السياسي والاجتماعي والعمراني لميلاد دولة بني حماد، وهي التي اكتنفت بتأثيراتها النفسية والثقافية

الظاهرة الحضارية ووسمت بميسمها شخصية الانسان الحمادي ، سيد المغرب الأوسط، في ذلك العصر، وجعلته يتقهقر شيئا فشيئا نحو عالم القدرية والتوكل السلبي والاستقالة الحضارية.

تري هل يسوغ لنا أن نسجل ظاهرة شيوع الفكر الاستسلامي منذ ذلك العصر ، رغم كون العصر عصر فتوة البلاد المغاربية حقا ، إذ عرف أثناءه كل من المغرب الأوسط والأدنى ظهور الدولة البربرية الاسلامية ، وإقامتها لملكها الأصيل ، بعد أن شبت عن الطوق في ظلال المدنية الاسلامية واستمدت منها الرشد والقدرة.

كان يمكننا أن ننخرط في إحصاء مآثر الملك الحمادي ، وإشعاعه المدني والعلمي على مدى غربي المتوسط ، لكننا أثرنا أن نلفت الانتباه إلى بعض ما يفيدنا به الأدب، باعتباره وجدان الأمة ، من أحوال روحية وشعورية كانت قد بدأت تلبس النفسية الجماعية وتتمكن من ضمير الأمة ومعنويتها ، الأمر الذي كان له سيء النتائج.

إن حرصا على إبراز جوانب الارتخاء التي كانت تستحكم من جسم الحضارة الاسلامية عبر مختلف أمصارها ودولها يبرر لنا أن نتوقف عند قصيدة ظهرت في تلك المرحلة ، صاغت قريحة مغربية ، لشاعر يعرف بابن النحوي ، وكتب لتلك القصيدة أن تعرف من السيرة ما جعل الجماعات المسلمة تحفظها وتردها وتشهرها لدى حلول كل خطب ، إنها قصيدة المنفرجة.

ولن يكون تناولنا لها هنا من قبيل الدرس التحليلي ، فذاك مجاله غير مجالنا الآن. لكننا سنقتصر على معرفة منحاه المضموني ، فضلا عن شيء من حياة مؤلفها.

فبذلك سيتاح لنا أن نتحسس حقيقة الجو التحتي ، الملابس للمناخ العام الذي كانت فيه مدينة الحماديين تنشط وتتوسع.

ابن النحوي غزالي المغرب

يمكننا إختصار حياة ابن النحوي كما سردها المراجع المتوفرة لدينا في سطور، فهو فيما ذكرت تلك المصادر من مواليد مدينة توزر (افريقيا) ، وقد رجح تاريخ ميلاده ب 433. نشأ وتعلم ببلدته ، وكان من بين الأساتذة الذين التقى بهم وأخذ عنهم أبو الحسن اللخمي، فقيه وقته ..

وكانت لابن النحوي أسفار لعل أهمها كان إلى الحجاز، فقد رحل إليها حيث انقطعت بها أخباره عن أهله أعواما عديدة حتى عد في حكم الأموات ، ويكون قد أقام في مصر حيناً ، إذ وجدناه يذكر في بعض تشوقاته الشعرية مصر ، ويعرب عن حنينه إليها ، مما يؤكد إقامته فيها..

ولا شك أن اختراقه للآفاق في تلك الغيبة الطويلة إنما كان من غاياته التوسع في العلم واكتساب المعرفة، على غرار ما كان يفعل طلاب العلم في تلك العهود.

وتذكر بعض المصادر أنه حين عاد إلى بلده، وجد حاكم البلد قد استبد بأمواله وأبى أن يعيدها إليه، فخرج ابن النحوي ضاربا في الأرض بحثا عن العوض وذهاب الصيت .

ولاشك أنه في خرجته تلك كان يتسلح بالعلم الذي استوعبه من أسفاره المشرقية..لذا رأيناه ينتهي إلى سجلماسة فيجلس إلى التدريس بمساجدها ، لكنه سرعان ما تصادم مع سلطة المدينة، حين رأوا أن منهجه التعليمي ومادته التدريسية كانت تشذ عما ألف الفقهاء تدريسه هناك، وهكذا خرج ابن النحوي ليحل بفاس حيث سيلقى نفس المصير بها ، إذ أخرجه قاضي البلدة بعد أن علم أنه يدرس الأصليين : أصول الدين ، وأصول الفقه ، فعاد ابن النحوي إلى القلعة، (بالجزائر) ، وهناك اشتغل بالتدريس مختازا عيش التزهة والنسك..إلى أن وافاه الأجل بها عام 513هـ.

إنها ، كما نلاحظ، خيوط حياة تغلب عليها الحركة والتنقل، تذرعت بالسياحة والضرب في الآفاق تحقيقا للكفاية الأدبية والمعرفية، ، لكنها عوكست بشروط واقع اجتماعي وثقافي كان من ميزاته:

1- الجور وظلم السلطان.. فقد استولى الحاكم - كما تقول الرواية- على أملاكه وأبى إعادتها إليه بعد رجوعه من رحلته.

2- المناهضة الفكرية التي جوبه بها في كل من فاس وسجلماسة والتي اضطرته إلى الرحيل والعودة إلى القلعة ، حيث سيستقر ويتزهد.

على أن أهم ما يطبع هذا الواقع الذي عاش في أكنافه ابن النحوي، هو حركيته. ذلك أن حركة التدافع والتغالب فيه لم تكن - كما أسلفنا- محدودة، وجزئية، بل لقد كانت شاملة ومتعددة المظاهر..

لقد كان المد الحركي الحضاري أفقيا يتمثل في: تحول العبيديين عن إفريقيا وحلولهم بمصر، وانحدار السلاجقة إلى العراق والشام وتوسعهم في الأقاليم من حولهم ودخول الهلاليين بلاد المغرب قادمين من المشرق.. وكان المد عموديا.. تتواجه فيه قوتان رئيسيتان على الأقل، قوة التجديد، النابعة من ذات الكيانات الإقليمية:

- القوة الذاتية وقوامها المرابطون ، ثم الموحدون، والأيوبيون.

- القوة الأجنبية العاتية والمتوغلة في أرض الإسلام وثغوره والممثلة في الروم والنورماند والنصرانية الإسبانية، بعد أن

استصفوا، أو باشروا استصفاء أنحاء الإسلامية في أوروبا والمتوسطي.. وستكون الأندلس أجلى مظاهر هذا المد الإكتساحي الذي تعرضت له جغرافية المسلمين في تلك العهود ..

لقد كان العصر بهذه الإنجراف المتعارض ، عصر تشكل بشري وحضاري جديد، سترث العصور التالية عنه خصائص جوهرية يظل الوجدان الجمعي والشخصية القومية مطبوعين بها إلى الأبد، وخاصة في بلاد المغرب العربي..

لقد تميز المرحلة بمخاضات عنيفة كانت تأخذ أحيانا شكل رهانات سياسية تتجدد بها الآمال حيناً ثم تخدم تاركة الشعور الإسلامي العام فريسة لحيرة وجودية عبرت عنها في كثير من الحالات حياة بعض الأفراد ممن راحوا يبحثون عن التكيف في تجربة السلوك والزهد والإرتياض الروحي.

لقد كان ابن النحوي واحدا من هؤلاء المتحيرين ، إذ أثر بعد طول تطواف أن يسير على نهج شيخه الغزالي ويختار الانقطاع مثله عن الحياة الصاخبة ..

لقد كان هناك من الأحداث ما يأخذ شكل الرمز في تعبيره عن المآل الإرتكاسي الأليم الذي انتهت إليه أوضاع الإنسان والحضارة..

ولعل أهم واقعة فكرية وثقافية وسياسية عرفها المغرب العربي ، في تلك المرحلة كانت حادثة حرق كتاب الأحياء للغزالي.

إنها واقعة تعكس مآل الخيبة واليأس الجماعي الذي أطبق على الناس والذي كان له معنى الانتحار والتوق إلى التجدد . إنه لفعل مأساوي ينطوي على روح الأسطورة.

لقد جاء المرابطون إلى الحكم يرفعون شعار الإنبعاث من خلال دافعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد حرك فيهم وازع الدعوة التجديدية فتى متعلم انتدبه أحد فقهاء حاضرة القيروان حين مر به وفد من حبيج الصحراء إذ طلبوا منه أن يرسل معهم أحد تلاميذه يعلمهم كتاب الله وسنة رسوله، ففعل.. وإن هي إلا سنوات مرت على هذا الحادث حتى كان أبناء الصحراء يقتحمون الأمصار، ويفتحون الأوطان.. وهوت تحت زحفهم دولة مغراوة الزناتية، واقتصر جلد الأندلس الطائفية ثم لم تلبث أن تهاوت قصورها تحت ظلال رماحهم حين تحولوا إليها منجدين ملوكها ضد الإجتياح النصراني..

وكان طبيعيا أن تبحث سلطة ابن تاشفين بعد الذي تهيأ لها من انتصارات وفتوح، عن الشرعية، فكانت إشارة الفقهاء عليه أن يخطب للخليفة العباسي، وأن يلتبس الشرعية من فقهاء العصر ، فكان كتاب الغزالي إليه يومها بمثابة رسم الإعتماد الشرعي الذي تأصل به للقائد المرابطي لقب أمير المسلمين، كما أحب أن يلقب..

على أنه حدث في عهد علي بن يوسف بن تاشفين أن صدرت الأوامر السلطانية بإحراق كتاب الأحياء..وكانت التهمة التي رفعها الفقهاء بشأنه أن فكر هذا المصدر الديني يناهض الفروع وينبذها، ويدعو إلى الأخذ بالأصول والرجوع إليها وحدها.

إنها في الواقع صورة أخرى للنزعة الظاهرية التي لبثت تتجدد في بلاد المغرب خاصة والتي هدف أصحابها، بعد إنسداد الطريق أمام الفكر الإسلامي إلى إختراق الحصار الذي أزم العقل وكبل الدينامية.

وهكذا تبلور الإشكال الثقافي والروحي الذي كانت له جذوره السياسية والاجتماعية الضاربة في عمق فكر الأمة ومعتقداتها ، والذي بات يعكس ما كان قد بدأ يعرفه الدولة المرابطية من ضعف وما بادرها من تحلل.

لقد كان ذلك الجدل الديني السلبي أحد أعراض الإنهيار.

إذ أنه من الوجهة الدينية القويمة لا إشكال يقوم بين أصول التشريع وفروعها بل إن التفرع يعد مظهرا حيويا، يبرز مدى فاعلية اجتهد الأمة، ويبين دينامييتها الفكرية وتكيفها لمتحولات واقعها مع روح العقيدة .

فالحياة تتسع لما يتعدى الأصول، إذ الأصول هي الإطار، أو ما يمكن أن يسمى المبدأ الإطار الذي يقوم أساسا على قابلية الإنفتاح ومواجهة الاحتمالات المجهولة والخارجة عن نطاق الراهن .

من هنا كان ذلك الجدل الذي ميز بين من نسميهم : الأصوليون والمفرعون ، جدلا عقيما يخفي ما أصاب الأمة من إفلاس مدني ومعرفي .

ففضية حرق كتاب الاحياء ما كانت في الحقيقة إلا عرضا انهياريا شاعت له الظروف السياسية والتاكتيكية أن يجسد صورة المفارقة العجيبة التي كان يسير فيها واقعا الفكري، بحيث نجد هذا الواقع ينتهي إلى حد تكفير الغزالي ، وهو كما نعرف الإمام الحجة الذي استمد منه السلطان المرابطي نفسه الإعتماد الشرعي في مرحلة النشوء.

ولنتذكر رسل ابن تاشفين إلى الخليفة العباسي وإلى الفقهاء ومنهم الغزالي.

إننا نعتقد أن المعارضة التي كانت تتطلع إلى عهد سياسي آخر ، هي التي نظمت وافتعلت مثل ذلك الجدل الذي أخذ أبعادا تمييزية وايدولوجية سافرة.

والذي لا ريب فيه أن تلك الواقعة -واقعة الحرق- إنما عكست من بعض وجدها صراعا تجديديا كانت قوته تفاعل الأوضاع من موقع هامشي، لم يمكنها من أن تحسم الصراع لصالحها ، أو أن تعدل المسار نحو أهدافها الإحيائية إلا على ذلك النحو الجدالي القاصر.

لقد كان كتاب الإحياء، بغض النظر عن محتواه إذا ما قومناه بالمنظور العصري، مدونة تحضيرية، تدينية ، من مقاصدها طبع الناس بروح الشرع، وتكليف أخلاقهم مع المنطق الديني، والتلويح أمامهم براءة التوبة والإثابة إلى الله، وإعطاء الرجاحة في مساعيهم وتعاملاتهم لتعاليم كتابه ولأحكامه، وجعلها معايير تضبط سلوك المجتمع .

ولقد كانت حياة الغزالي ذاتها تجربة انتهت بالإحترق الروحي هي أيضا، ومثلها كانت حياة تلميذه ابن النحوي الذي كان له في غمار تلك المحنة، دور الفاعل والمنفعل بالوقائع .

ففي غمار ذلك الاحتدام الجدالي لم يقعد بابن النحوي وازع الامساك والورع ولا نكبته في ماله وتغربه عن وطنه (القيروان) من أن يدلي بدلوه ويصدع برأيه صريحا في ما كان يجري بإزائه .

تري هل كان قدر المثقف المسلم في تلك الحقبة أن يسبح ضد التيار، إما بامتشاق سيف التمرد والثورة، كما سيفعل ابن تومرت

مثلا فيتصدى للأوضاع يقلبها ، وإما بالإنطفاء وإخمال النفس وملابسة الأحوال الغيبية ومعاشة الواقع من وراء عوازل ذهنية ، تأويلية واقية ، كما فعل الغزالي، وتلميذه ابن النحوي وكما سيفعل ابن العربي وابن الفارض والسهروردي وآخرون؟

أم هي تجربة التميز المرتبطة بالألمعية تزج بصاحبها في طوائف الوحدة والتفرد حتى لا ترديه ضراوة الواقع وتفسخاته..

يذهب بعض إلى الاعتقاد بأن ابن النحوي قلعي المولد، ونحن لايهمنا تثبيت الواقعة أو توثيقها بقدر ما يهمنا وضع اطار عام يعكس شيئا من الوضعية العامة التي كان عليها المثقف في البيئة المغربية، ذاك العصر ، وقد تكون الافتراضات نسبية في صحتها لكن المهم أن لا يخرج التصور العام عن الإطار الإحتمالي الذي رسمته الروايات القليلة لحياته..

ويظل الاعتقاد راسخا لدينا بأن الإحالة على حياة ابن النحوي ، تأخذ رغم خصوصيتها بعدا جمعيًا ، عموميا.. إذ لا يبعد أن تكون لتجربته الحياتية قواسم مشتركة مع ما عاشه الناس في تلك المرحلة.

وإذا ما التفتنا مرة أخرى إلى حياة ابن النحوي ، فما أسرع ما سنلاحظ تفرداها.

إنها حياة انبنت هي الأخرى على ثنائية السلب والإيجاب التي وسمت العصر و عدت في كنفها شخصية الفرد عنوانا لهوية جمعية مفصومة، تزوج فيها الباعث وضده .

لكأن إرادة الأفراد كانت تتحرك بفعل الظروف والجبرية السياسية والمدنية أكثر من تحركها بالوعي الذاتي والتقدير السليم للتوقعات والإحتمالات.

تري هل كان العصر في كليته يغلف الأمة بحال من الإستيلا ب عامة، امحت فيه الأهداف من أمام الأفراد والجماعات ، وتوهموا غايات أخرى، فساحوا، وناحوا.. ليعيشوا آلام الإحتضار باحساس عميق زاد من الفجيرة..

لقد تولى ابن النحوي إلى وطنه، فوجده خرابا يبابا، ووجد ما تبقى من القيروان قد صودر وباعه شيوخ القبائل الهلاليون للمتغلب الحمادي: الناصر بن علناس، وكانت نكبته من ممتلكاته مضاعفة ، إذ عجز عن أن يجد النصفة والعدل لدى الحاكم..ولم يسعه ألا أن ينصرف إلى حيث أمل أن يحقق لنفسه مكانة..

ويتهيا لنا هنا طرح سؤال حول شخصية ذلك الحاكم الذي ابتز أملاك ابن النحوي ، هل يكون الحاكم الزيري أم احد الخراسانيين الذين نصبهم الحماديون على حواظر وأقاليم عدة من تونس ، والذين ظلوا يمثلون الحماديين بالاقاليم التونسية التابعة لهم إلى أن التحقوا

بالقلعة بعد أن دب الإنهيار في أوصال الدولة الزيرية ، وخاصة بعد الإجتياح الهلالي؟

أم ترى كان ذلك الحاكم شيخا هلاليا ممن مارسوا المداهمة ؟ أم أن ما حدث حدث له فيما كان يقيم في القلعة وليس في توزر؟..

والمستبعد في كل هذا أن يكون الحاكم المبتز حماديا، إذ لو كان كذلك لكان خروج ابن النحوي من القلعة نهائيا، فقد رأيناه ما أن تجبه المشاكل بالمغرب حتى يؤوب إلى القلعة ثانية، لا ليكون حلوله بها عابرا، ولكن ليتوطنها، حيث سيعيش حياته التعليمية والروحية إلى آخر العمر..

ما يهمنا في هذا الإستطراد هو تحسس حال ابن النحوي في تلك الحقبة التي أعقبت رجوعه من رحلته الطويلة..

فالذي نؤرخ به الرواية أن خروجه بعد أن منع من استرجاع أملاكه كان من أجل أن "يذهب صيته في الناس". وذهاب الصيت لا شك يكون إما بطلب الدنيا أو بطلب الدين والعلم، أو بطلبهما معا.

على أن الإستنتاج الآخر الممكن استساغته من هذه الإشارة الخبرية عن حياته هو أن ابن النحوي لم يخرج إلى المغرب زاهدا ، ولم يدفعه احساسه بالجور، وبالعوز، بعد رحلة علم وتعبد مديدة ،إلى

أن يتصوف ويخرج سائحا راضيا بالمصير الذي انتهى إليه بعد التطواف الطويل ..

فالحادثة لم تضعف همته، ولم تصرفه مصرفا سلبيا يقطع أسبابه بالحياة العملية، بل لقد جابه الحالة بتجدد همته إلى السفر وإلى السعي لاكتساب ما يتوطد له به الاعتبار .

على أن الأهم في هذا أيضا أن الرجل بهذا الإستعداد المتجدد للرحلة والذي أعرب عنه بعد الإمتحان، إنما كان يؤكد الحال المعنوية السوية التي عاد عليها من المشرق ومن الديار الحجازية..

إذ لم يعد متمسكا منها ولا متزهدا، هو الذي خرج، على ما تزعم الرواية ، واعتقاد التوكل يفعم روحه، إذ روي أن بعضا من اله فيما كان يغادرهم إلى المشرق طلب إليه أن يوكل بأهله وذويه أحدا يكفلهم، فخط في ورقة شيئا، وقال لهم:

أو دعتكم هذا.. فلما فتحوا الورقة بعد حين وجدوا فيها:

الذي وجهت وجهي له هو الذي خلفت في أهلي
فإنه أرفق مني بهم وفضله أوسع من فضلي

فالرحلة لم ترسخ فيه نزوع الإضراب عن الدنيا كما كان شأن العديد من أهل العلم ذوي الإحساس الديني الراسخ ، وما يلبس ذلك الإحساس - عادة- من وعي بعزة النفس والترفع عن الدنيا وعدم التهافت طلبا لها .

لكننا سنجد ابن النحوي، على زعم الرواية، يستبدل قناعة بقناعة ما أن يصل الجزائر، حيث نراه يأخذ بمبدأ مناصرة الحق، والخروج في سبيله، كما يؤكد ذلك التصريح المنسوب إليه، حيث يقول مخاطبا نفسه:

"يا نفس، خرجت مهاجرا إلى الله تعالى ورسوله، ورفضت الدنيا منذ الأعوام المتطاولة، فتقابليني بهذه المقابلة، والله ما خرجت لنصرة المخلوق دون الخالق"

وواضح أن هذا الإقرار يثبت جذوة استرخاخص الدنيا التي كانت تسكن أعماقه، والتي ظل يمارس بها حياته كاحساس يقيم فيه الرغائب والأهواء، إلى أن كانت صدمة الإغتصاب التي تعرض لها على يد الوالي، فكان من ثمة ثورته وكان سفره، وكانت الروحية التي انزاح بها وبصورة نهائية عن طريق العام والتزم طريق الشظف والزهد.. خصوصا وأن روحه كانت تستلهم سيرة إمام العصر، الغزالي، ذلك الرجل الذي كانت تعاليمه تعظم من شأن الصلة الإعتقادية، وتتوه بأفضال التوكل الخالص، وترجح جانب أهل الصفاء والزهد والمتحررين من قيد السؤال..

لقد كان الغزالي، بإدراكه الواقعي لمآل عصره، يضمّد جراح الأمة بروح شفق، ولم يكن يرى في الدعوة إلى الإنتفاض على الواقع جدوى، لأنه كان على بصيرة بهمود الجسد، وانزراع الأدواء المعضلة فيه..

لقد ظلت تعاليم الغزالي مادة تسكين وسلوى تعاطتها الأمة طيلة عصور احتضارها.. وإن قراءتنا لتراثه اليوم لا يمكن أن يكون لها من معنى إلا إذا استخلصنا الكوامن النفسية والإرتكازية التي ظل خطابه يهيئها للأفراد والجماعات ويعزيهم بها على مدى قرون من السكون والوعي الغائب ..

تري هل كان ابن النحوي، وهو يتصدى للعدوان الفكري والسياسي الذي تعرض له تراث معلمه الغزالي على يد متقفي النظام المرابطي ونقهاته الذين أفتوا بإحراق الإحياء، يناصر مدرسة، أو ينتصر لقيم يكون تشبع بها غداة مكوثه في الشرق، أم أنه سعى بذلك الموقف الدفاعي إلى الإعلان عن قيام فكر تنويري يطمح إلى ترجيح دور القيم والأخلاقيات لتظل جذوتها حية في النفوس تقاوم بها أفاعيل التردي التي كانت تعزز من آثارها النفسية معاول الهدم الحضاري والغزو الصليبي .

ويبدو لنا أن المنعطف الحضاري الخطير الذي كانت الأمة تجتازه عصرئذ قد أفرز هذا المستوى من الإستجابات التنويرية التي تمثلت في أصوات مصلحين كانت ظروف الأمة تصرفهم إما إلى الثورة وإما إلى الإعتصام بروحانية الرباطات والخلوات..

لقد عرفت منطقة المغرب العربي خلال تلك الفترة - وستعرف فيما بعد- ظهور دعاة مثقفين استماتوا في ركوب المغامرة الإنقلابية، نشدانا للإصلاح..

وربما كان ابن تومرت، وعبد المؤمن، وابن خلدون، وأبو المحلي، وخير الدين والتجاني، وعبد القادر، وابن باديس، و.. آخرون، بعض رموز هذا التصدي المناهض لمعضلة التحلل، المعتمد بالمقدرات الروحية للذات، المحترق بوهج الفعل والمراهنة على الانبعاث والانخراط في تجديد دعائم الكيان..

انجذب ابن النحوي إلى تبني فعل التغيير، فناهض فقهاء المغرب والأندلس، وكان الأمير يومئذ هو علي بن يوسف المرابطي، فراح ابن النحوي يدافع بالحجة عن شيخه الروحي، وكانت تبعة ذلك الموقف، أن نفي وحظر التعامل معه في دولة المرابطين، فكان منه ذلك الثبات الذي جسده من خلال انحياز فكري وروحي مطلق لشيخه، إذ قرر أن يوقف عمره على دراسة كتاب الإحياء وتدرسه.

فقد أثر عنه أنه استنسخ الكتاب في ثلاثين جزءا، ليدأوم على قراءتها مفصلة وخصوصا في شهر رمضان..

وظل ينوه بذلك الكتاب ويكرر لمريديه، ولمن يتصلون به، أنه ود لو لم ينظر في عمره سوى الإحياء.

بل إن الإنبهار بتعاليم الغزالي سيجعل ابن النحوي ينظم فيه شعر تبجيلا تمجيدا:

أبو حامد أحبا من الدين علمه وجدد منه ما تقادم من عهده
ووقفه الرحمن فيما أتى به وألهمه فيما أراد إلى الرشده
فصلها تقصيلا فأتى بها فجاءت كأمثال النجوم التي تهدي

لقد بلغ الإعجاب بالغزالي وبآرائه حدا غدا معه التلميذ الروحي ابن النحوي، بسلوكه ومواقفه، معدودا في نظر أهل المغرب بمثابة الغزالي عند المشاركة.

وتلك نتيجة طبيعية تجعل غالبا من التلميذ صدى روحيا لشيخه، وهو ما أشار إليه عبد الله الصنهاجي أحد مثقفي القلعة في ذلك العصر، حيث قال:

"كان أبو الفضل في بلادنا بمنزلة أبي حامد الغزالي في العراق في العلو والعمل".

وإذا كان الغزالي قد عاش الحظوة السياسية، وطفق يتصدر التشريفات ضمن هيئة العلماء البغداديين خلال مقامه مدرسا بالنظامية، حيث كان الإقبال على أهل العلم من جملة ما تذرعت به المؤسسة الحاكمة لإسناد مشروعاتها، إذ أن المجتمع المدني في الحواضر الإسلامية كان يمارس نفوذه من خلال توفير الواجهات العلمية وتوقيرها، محققا على ذلك النحو شيئا من شروط حفظ التوازن بين القطاعات والقوى.. قلت إذا كان الغزالي قد عاش في بيئته معززا موقرا، فإن ابن النحوي، كما توغر بعض الإشارات، لم

يلق مثل ذلك التكريم الرسمي ، حتى في بلدته القلعة، فقد ذكر أنه مر ذات يوم بابن عصمة المفتي ولم يسلم عليه لانشغال باله ، فعظم ذلك على المفتي وناداه ، محقرا:

"يا توزري صفرت وجهك ، ورققت ساقيك ، وصرت تمر فلا تسلم.. قيل ، فاعتذر إليه ابن النحوي ، فلم يقبل عذره وأغلظ له القول ، فقال له أبو الفضل غفر الله لك يا أبا محمد ، وانصرف..

ولئن أمكننا أن نفيد من هذا الخبر شيئا ، فهو هوان جانب صاحبنا عند بعض ممثلي السلطة في القلعة ، فالمفتي يومها كان في مصاف القاضي ، والإمام وثلاثتهم يشكلون السلك الديني الذي تعدد به الدولة، وتسوس به إلى جانب الآلة العسكرية - شؤون الناس .

وربما اعتبرنا مثل هذا التحامل الذي صدر عن المفتي ضربا من مواقف الاساءة التي كانت تحمل عليها روح التنادد بين الأفراد والأقران في العلم ، لكن تبقى النتيجة في الحالين تؤكد حال الهوان التي لبث تلحق علماءنا في وطنهم وعلى يد ذويهم، وهو ما ظل يشكو منه بمرارة كثير منهم وفي كل عصر.

لقد كانت القلعة تواجه مخاطر خارجية تتمثل في تهديدات جاريها المرابطي غربا والزييري شرقا ، وفي الحصار الزناتي والهلاكي المضروب عليها من أنحاء عديدة..وذاك ما سيلجئ ساستها إلى اختيار الوجه البحري ، وأعالي الهضاب لتأسيس عاصمتهم الجديدة بجاية..

وإذا كان ابن النحوي قد ظل مقيما في القلعة حتى بعد أن ارتحل السلطان عنها إلى بجاية ، فذلك يؤكد طلاقه النهائي مع السلطة..وخروجه عن سلكها..

ولابد من الإشارة إلى أن الإضطهاد السياسي الذي استهدف تراث الزناتي واستهدف أيضا تلاميذه من المتتورين المغاربة، قد أحدث شيئا من البلبلة أوساط اجتماعية كثيرة..

فقد رأينا مثلا علماء تلمسان يوجهون رسالة إلى الفقيه الزناتي أبي زكريا المقيم يومئذ بالإسكندرية، يطلبون رأيه في الغزالي..

ونقدر بالإستنتاج أن تاريخ مقام ابن النحو النهائي في القلعة يصادف شطرا من عهد المنصور الذي حكمها ما بين 435 و 481 هـ.وعهد باديس القصير(أقل من سنة)، وعهد العزيز الذي ابتدأ في سنة 498 وانتهى عام 515هـ .فإنها دون ريب ، الفترة التي تحقق فيها للإمارة الحمادية ازدهارها واستقرارها، حيث استطاعت أن تستوعب أطراف التغيير بأشكاله الهدامة والبناءة، سواء من المعارضة الحمادية ذاتها أو من الهلاليين وزناتة ، أو من غيرهم..

وهي أيضا المرحلة التي أضحت فيها بجاية واحة أمن ومثابة سلام يأوي إليها المسلمون المطاردون من أوطانهم، إذ كانت مهبط المسلمين من صقلية مثلا، وكان بينهم كما نعلم ،الشاعر ابن حمديس

الصفلي الذي أوى إليها وأقام بها ما يؤكد أهميتها الإستقطابية في منطقة المغرب يومئذ.

ذكر ابن خلدون أن عليا بن مجاهد العامري صاحب دانية عند فراره من أمام الجيش المرابطي يمم شطر بجاية فاستقبله أميرها الناصر وأكرمه.. وكانت الإمارة ملاذا لملوك غرناطة الزيريين، فقد نزل عبد الله بن بلكين على الناصر فأكرمه وخيره في الإقامة، فاختر دلس البحرية.

كما أن علاقة الإمارة بأوروبا وبالبابا كانت في هذه المرحلة متطورة.

إن هذا الإزدهار الثقافي والسياسي الذي ميز تلك الفترة كان على سماحته لا يتسع للتجديد التمدني والتطوير الفكري، ولا يحتمل أي مظهر من مظاهر مناوئة الواقع، حتى ولو كان ذلك تحت شعار الدين.. لذا رأينا العزيز يلجأ إلى طرد الداعية ابن تومرت، ذلك المثقف العائد من المشرق، مثل سلفه ابن النحوي، والذي كانت أعماقه تموج بمشاريع الإصلاح والتغيير.

على أنه لابد من الإعراف بأن ذلك الإجراء الإقصائي الذي اتخذته الأمير العزيز ضد ابن تومرت قد حدث بعد تلك وتتردد واضحين، إذ وجدنا العزيز يرخص أول الأمر لابن تومرت أن يناظر الفقهاء الرسميين الذين نالوا منه، وعارضوا دعوته.. ثم عاد

فأصدر أمره ثانية بإخراج الفقيه من حاضرتة، ونفيه إلى بعض القرى المجاورة لبجاية، لكأن غاية ذلك الإبعاد-على ما يظهر - لم تكن تهدف إلا إلى تسكين الهرجة التي أحدثها إنتصار الفقيه على علماء القصر..

على أننا نعتقد من ناحية أخرى أن جوا من الحذر كان فعلا يميز موقف الحكام المغاربة والمتقنين السائرين في ركابهم تجاه الانتلجنسيا المستعملة في المشرق والعائدة الى الديار..وذلك ما كان يخيف أهل المصالح والمراكز المتنفذة، فكان طبيعيا أن يعمل هؤلاء ما وسعهم العمل على تهميشهم ووصمهم بالنعوت والطعن في أفكارهم ومعتقداتهم..

وليت شعري هل نعت البعثية الذي تلمز به دوائر السياسة والثقافة في مجتمعنا اليوم، إلا إستمرار لذلك الوضع الذي كان عليه أسلافنا؟.

ومهما يكن من أمر، فإن عزلة ابن النحوي، لم تكن محض اختيار ارادي تكيف به مع أجواء ذلك العهد، بل يهيئ لنا أن وطأة الإقصاء والتهميش الإدارية والسياسية كانت من جملة الدوافع التي حملته على أن يحيا حياة العكوف والإنقطاع تلك، في حين سيتمكن الشاب ابن تومرت، ومن بجاية بالذات، من أن يخترق الحواجز ويشق الطريق بفئة المناضلين الذين انخرطوا في حركته وسيتوصل إلى نفس الوضع، وإقامة بديلا له.

المنفرجة بين حدث الميلاد والسيرورة الذبوع.

تسوق الرواية خبر وضع ابن النحوي هذه القصيدة، في وثوق وطمأنينة، إذ هي تربط مناسبتها بأزمة نزلت بالرجل، فلما نظمها وابتهل بها إلى الله انقشعت تلك الشدة وأعقبها الفرج.

وتعطي الرواية التفصيل عن هذه الشدة فتزعم أنه بعد خروجه من بلدته توزر (تعرض) لإعتداء واليها عليه، واغتصابه أملاكه، فارتحل إلى الجزائر، وأقام بمسجد في قلعة بني حماد، ونظم القصيدة، وتضرع إلى الله أن ينجده قائلا:

لبست ثوب الرجا والناس قد رقدوا	فقلت أشكو الي مولاي ما أجد
وقلت يا سيدي يا منتهى ألمي	يا من عليه بكشف الضر أعتد
أشكو اليك أمورا أنت تعلمها	مالي على حملها صبر ولا جلد
وقد مددت يدي بالضر مشتكيًا	إليك ياخير من مدت إليه يد

قالوا: فرأى الوالي الباغي ما أفزعه إذ رأى النبي(ص) يقول:

ابعث لأبي الفضل في المسجد المعروف بكذا من بلد الجزائر من يأتيك به، ولما مثل ابن النحوي بين يديه سألته حاجته، فأخبره بها، فأمر له بإعادة جميع ممتلكاته، ثم قال له: ما وسيلتك عند رسول الله، فأخبره بنظم هذه القصيدة..

ما علاقة المنفرجة بالشخصية الجزائرية؟

لن نستفيض هنا في تبيان علاقة الوجدان بالفن، لا سيما الأدب والشعر.

ومما لا ريب فيه أن صياغة القرآن العظيم للنفسية الإسلامية قد أورثها هذا الاستعداد شبه الفطري الذي غدت به تعظم النص، وتعلي من منزلة الكلمة، وتجعلها مناط موثقها، فالكلمة هي العربون والشاهد والفيصل.

ويزيد من شأن الكلمة الكيفية التي تعرض بها، فاللفظ المخطوط عنوان القدسية والقول المنشود مجلى السمو..

والشعر بالقياس إلى الأمة الإسلامية يستمد حرمة من قداسة القرآن، كلاهما يكتب ويحفظ ويساق للحجة، ويتلى، ويتغنى به غناء الروح والنبيل النفسي.

وقد ظلت عين الشعر محل تعظيم في كل عصر الأمة، بل لقد كانت النصوص المتفوقة تحوز التشريف المخلد لها عبر الأجيال.

وهو ما كتب به لقصائد أن تكون سيارة لما لها من قابلية وقدرة على ملامسة الحس الانساني العميق.

من هنا أدرك الانسان أن للشعر نفاذا لا يقاوم، وسلطانا لا يرد.

لقد ظلت محافل الانشاد مدرسة الجماهير العليا حيث يتم وضعها وجدانيا وروحيا على صعيد يجمع النشوة والكمال .

وظلت من جهة أخرى الأرواح تجد في الشعر أفضل معز ، وأرق مسل ، وأرحم ململم لشعث القلوب حين تعصف بها العواصف، تماما كما وجدت فيه مادة البوح عن المباهج والسعادات.

فالقصيد المعبر هو منديلنا الذي نكفكف به دمع الأحزان ، وهو أيضا الوردة المبرعمة التي نتنفخ منها عقب الحياة ، ونبحر في سماءات الهناء.

والقصائد مثل البشر لها أفئدة وصدور وأمزجة ونفسيات.

ومن القصائد ما يهمس بالمعنى في رقة ومنها ما يجهر بالإيعاز في لطف ، ومنها ما هو ألكن ، ومنها ما هو فصيح ، وأعظمها تلك التي تحمل بين جوانحها قلبا يسع الأحزان ويداوي الجراح ويمنح الأمل والسلوى. وقصيد المنفرجة هو من هذا الجنس الفريد.

لقد حدثتنا أخبار الرحالين أن المنفرجة ذاع صيتها في أقطار الأرض المسلمة منذ عصرئذ. فقد باتت وردا تفرع إليه الجماعات في أحزانها ، وحزبا ترتله في انكساراتها.

لقد شحنها صاحبها بفيض من روحه ، فمكن لها على ذلك النحو أن تنتزل في مواسم الأمة منزلة راسخة.

بل لقد هيا مزاج هذا القصيدة لابن النحوي أن ينفث في أعطافها ما أثقل على قلبه وجثم على روحه ذات حين من جوى وانكسار سببته معطيات بيئته وجور الحكام وضربات القدر وتعثرات الحظ.

لقد كان الابتلاء من العمق بحيث جاء مفتتح القصيدة على هذه الصورة من السفور والانخراط في عرض شجي القلب على نحو مباشر ومتفائل وبالغ الوقع.

لقد عبأ ابن النحوي سجلا رائعا من الايقاع الذي أكسب هذه القصيدة قبولها.

فهي منظومة خفرة ، راقصة ، زاوجت بين الانطلاق الفني والتعليمية ، إذا أرسل القول فيها برشاقة لا تمارى ، وجمعت إلى ذلك مستوى من التحسيس الديني والتوجيهي ، وسنراها ترهص لمدونات أهل السلوك من أمثال ابن الفارض ، وسيلحق أثرها بقصائد الأمير عبد القادر الروحية.

ومع ذلك نقرأ القصيدة في كليتها فتصدمك فراغات كثيرة لا تلمس فيها باهر معنى وإن استرسل بك النغم على وتيرته المطردة.

ترى هل يمكننا أن نقرر هنا أن المنفرجة كانت تحولا نوعيا في علاقة المسلم بواقعه ، حين جعل الكلمة التي ظل يستمد منها الأسرار والهدايات ، تغدو مادة لصون الذات ، وسلاحا يعترض الضربات ، وحرزا يحقق السلامة.

سنجد الأمة تحترف تعמיד نصوص كثيرة في أعرافها وفي ضبط صلاتها بالمجالات المظلمة والمغاليق الصماء .

وإذا كان القرآن هو متن العبادة والإيمان ، فقد هيات الأمة متونا أخرى جعلتها أداة استنزال لرحمة الله واستنفار ضد عاديات الحياة .

لقد بات البخاري نصا مثلوا في الملمات والأوبئة وفي الحروب ورد المظالم.

وبات خليل راتبا معظما لدى المغاربة وحائزا على قدسية لا هوادة فيها.

وستتكاثر المنظومات الشعرية والمدونات ذات القيمة المعنوية البارزة والراسخة.

فقد انعقدت الألفة بين أوساط الأمة وبين مستوى من النصوص كان الوجدان الجمعي يركن إليها ويذعن.

لكأن أمية الأمة زينت لها أن تتماهى في تعظيم النصوص ، وأن تنزلها من نفسها منزلة الإعلاء.

ستكون البردة واحدا من المتون التي راج تعاطيها في الملمات منذ أن شهر عن صاحبها أنه تعافى من أزمانه لمجرد نظمها.

وهكذا غدت الأمة تعترف لطائفة من النصوص بحظ من الخراقة أدرجها في سلك القداسة.

والحال نفسها ستشمل الانسان ، إذ سنجد الجماهير ترتد إلى حماية أهل الكرامات- أمواتا وأحياء- وتلوذ بهم في السراء والضراء.

لقد كانت المنفرجة أنشودة تعترض بها الأمة أنواع البلاء التي تضربها ، وراية تنقي بها الشرور.

وسيكون لها في البيئة الجزائرية مثيلات تواظب الجماعة على إنشادها والتوسل بها.

فياقوتة سيدي الشيخ إلى اليوم هي ورد تقرأه الجماعة كلما حل موسم أو طراً لازب.

ومثلها توسلية ابن الشاهد الفائية ، التي طالما التأمت الحلقات لإنشادها والتوسل بها¹¹. لقد تصدت بها الجماهير لغشم المستعمر تضمد بتعابيرها الجراح¹².

فالمنفرجة ، حين غدت متنفسا يخفف عن الجماعات المسلمة بعضا من مكابذاتها تكون قد سجلت خطوة على طريق تغليب جانب التجريد على الحس ، الخيالي على الحقيقي ، العملي على السحري.

لقد ضاهت المنفرجة من بعض الوجوه في تأثيرها على العقل والوجدان المغربي والمسلم ما كان لكتاب الأحياء ولمدونات أهل السلوك من تأثير. فالشخصية المغاربية النزاعة إلى الشظف والشدّة قد تجاوبت على نحو أو آخر مع كثير من المتون التي رأت فيها عاملا تربويا ووسيلة تقرب إلى الله .

وربما توجهنا القول بتقديم نص المنفرجة ، والمؤمل أن نخصها بدراسة أدبية في غير هذا المكان:

¹¹ مطلعها :

ألا يا لطيف يا لطيف لك اللطف
فأنت اللطيف منك يشملنا اللطف
يا لطيف لطيف إنني متوسل
بلطفك فالطف بي وقد نزل اللطف.
- من أهم الأعمال الأدبية التي عكست تعاطي المجتمع المغاربي للتوسل ورفع العقيرة بـ
يا لطيف ، رواية الحمامي التي عنوانها " إدريس.

نص القصيدة

اشتدي أزمة تنفرجي
وقلام الليل له سرج
وسحاب الخير لها مطر
وفوائد مولانا جمل
ولها أرج محي أبدا
فلربما فاض المحيا
والخلق جميعا في يده
ونزولهم وطلوعهم
ومعايشهم وعواقبهم
حكم نسجت بيد حكمت
فإذا اقتصدت ثم انعرجت
شهدت لعجائبها حجج
ورضي بقضاء الله حجا
وإذا انفتحت أبواب هدى
وإذا حاولت نهايتها فاحذر
لنكون من السباق إذا
فهناك العيش وبهجته
فهج الاعمال إذا ركبت
ومعاصي الله سماجتها
ولطاعته وصباحتها
من يخطب حور الخلد بها
فكن المرضي لها بتقى

قد أذن ليلى بالبلج
حتى يغشاه أبو السرج
فإذا جاء الابان تج
لسروح الانفس والمهيج
فأقصد محيا ذاك الأرج
ببحور الموج من اللجج
فذو سعة وذو حرج
فإلى درك وإلى درج
ليست في المشي على عوج
ثم انتسجت بالمنتسج
فبمقتصد وبمنعرج
قامت بالأمر على الحجج
فعلى مركزته فعرج
فأعجل لخزائنها ولج
إذ ذاك من العرج
ما جئت إلى تلك الفرج
فلمبتهج ولمنتهج
فإذا ما هجت إذا تهج
تزدان لذي الخلق السمج
أنوار صباح منبلج
يظفر بالحوار وبالغنج
ترضاه غدا وتكون نج

وانل القرآن بقلب ذي
و صلاة الليل مسافتها
وتأملها ومعانيها
واشرب نسيم فجرها
مدح العقل الآتيه هدى
وكتاب الله رياضته
وخيار الخلق هدايتهم
فاذا كنت المقدام فلا
واذا أبصرت منار هدى
واذا اشتاقت نفس وجدت
وثنايا الحسناء ضاحكة
وعياب الاسرار اجتمعت
والرفق يدوم لصاحبه
صلوات الله على المهدي
وأبي بكر في سيرته
وأبي حفص وكرامته
وأبي عمر ذي النورين
وأبي حسن في العلم إذا

حرق وبصوت في زه شج
فاذهب فيها بالفهم وج
تأت الفردوس وتتفرج
لا ممتزجا وبممتزج
وهوى متول عنه هج
لعقول الخلق بمندرج
وسواهم من همج الهج
تجزع في الحرب من الرهج
فأظهر فردا فوق الثبج
ألما بالشوق المعتلج
وتمام الضحك على الفلج
بأمانتها تحت السرج
والخرق يصير إلى الهرج
الهادي الناس إلى النهج
ولسان مقالته اللهج
في قصة سارية الخلج
المستحي المستحيا البهج
وافى بسحابه الخلج

الفهرس

استهلال.....	5
سنن التفكك والتركيب. وميلاد الدولة الحمادية.....	9
المردود العلمي والثقافي لدار الإسلام في القرن الخامس والسادس	
الهجرين.....	21
قراءة في سيميائية الأعلام.....	40
البربرية ..التاريخ..والاجتماع.....	45
الواقع التاريخي العام..وميلاد دولة بني حماد.....	48
البساط الإقليمي الإسلامي:.....	48
جدلية الشكل والتشكيل:.....	50
القوى الفاعلة..في عملية التشكيل.....	54
ظاهرة التحول في المكونات السياسية والإدارية لخريطة العالم الاسلامي	
خلال القرنين الخامس والسادس هجريين:.....	60
الخلافة..الشرط الفاعل المنفعل:.....	64
القرن الخامس..قرن إتلاف مادي وأدبي للحضارة الاسلامية:.....	68
الشريف الرضي يتأسى على الوضع العام للنظام والسلطان.....	83
الخليفة يبيع متاعه لدعم مجهود الجهاد والوزير يحول المال إلى متعته...84	
تاريخية المسلمين أوشكت على الانقطاع لولا ظهور جارية حامل.....85	
الحجاز موطن التقاطع بين الخلافتين العباسية والعبيدية.....93	
الدولة الحمادية:.....	102

- 102.....قراءة في جدلية التفكك أو الإنبثاق السياسي.
سيرورة التحلل والتفكك كما عانتها الولاية الزيرية في كنف
الخلافة العبيدية.....107
112.....ظاهرة الإقسام من خلال الشاهد الحمادي :
الجزء المتجزىء.....112
124.....ابن النحوي غزالي المغرب
المنفرجة بين حدث الميلاد والسيرورة الذبوع.....144
145.....ما علاقة المنفرجة بالشخصية الجزائرية؟
نص القصيدة.....151

الإيداع القانوني: 2002-1127

ردمك: 2-164-54-9961

حدار الغرب للنفش و التوزيع

حي 52 مسكن رقم 101 ENSEP - وهران -

الهاتف:(041).41.65.31/ الفاكس: (041).41.94.31

فباستثناء مراحل ابتدائية، رأينا فيها الدولة، أو بالأصح الخلافة، تتمكن من انجاز مشاريع عمرانية وثقافية وحضارية تتصف بطابع الرخاء وبالمردودية الأدبية والمادية المحسوسة، فإن مراحل الضعف والتحلل قد طغت على شطر عريض من تاريخ المسلمين، وكانت الفتن لا تتي تعاود هدم كثير مما يشيدونه، وهو ما جعل أعراض التفكك الداخلي في المجالات الاجتماعية والسياسية تتكاثر وتتعدد.

لقد نشب في الجسم مقلب الإنقسام والتشتت، وغدا التقاتل والصدام من مظاهر الوجود المدني الاسلامي، وبذلك كانت الدول الاسلامية تعيش التصدعات، وتسير بسرعة نحو الانحدار والإنهيار.

إن هذه الآلية المخاضية، المأساوية، شبه الحتمية، هي نفسها تقريبا التي كونت الإطار السياسي والاجتماعي والعمراني لميلاد دولة بني حماد، وهي التي اكتتفت بتأثيراتها النفسية والثقافية الظاهرة الحضارية ووسمت بميسمها شخصية الانسان الحمادي، سيد المغرب الأوسط، في ذلك العصر، وجعلته يتقهقر شيئا فشيئا نحو عالم القدرية والتوكل السلبي والاستقالة الحضارية.



دار الغرب للنشر و التوزيع